عبقرية الإمام علي

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

مقـــدّمة

أحمدك اللهم حمدا يوافي نعمك ، ويكافىء مزيدك ، وأسألك يا الهي أن تصلي وتسلم وتبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله ، كمـا صليت وسلمت وباركت على سيدنا ابراهيم ، وعلى آله في العالمين ، انك حميد مجيد ..

وبعـد ..

فمع السماحة والعدل ، والنجابـة والفضـل ، والشجاعـة القاهرة ، والبطولة النادرة .. مع القوة التي خذلتها القوة ، والهمة التي اثاقلت مـن حولها الهمة ، والمروءة التي استعصت عليها المروءة .. مع الحكمة التي خلفت مواريثها للاجيال ، فكانت نورا يشع ، وزادا يشبع .. مع كريم الوجه وعظيم الخلق .. مع الامام وكفى .. نسيج بين صفحات هذا الكتاب .

وفي الحديث عن الامام صلة بالنفس الانسانية في كل مناحيها ، وفي سيرته ملتقى بالعواطف الجياشة ، والاحاسيس المتطلعة الى الرحمة والاكبار ، لانه الشهيد أبو الشهداء .. وملتقى بالخيال ، حيث دار حول شجاعته منزع الحقيقة ، ومنزع التخيل .. وملتقى بالفكر ، فهو صاحب آراء لم تسبـق في التصوف والشريعة والاخلاق ، ويعتبر صاحب مذهـب حكيـم بين حكمـاء العصور ، أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكـاء الساسة المتغلبين ، وملتقى مع الذوق الادبي أو الفني ، تراه في نهجه البلاغي والادبي .. وملتقى مع خلاف الطبائع والاذهان ، أو الخصومة الناشبة أبدا على رأي أو حق أو وطن ، فتنازع الناس حوله ، وتناقضت آراؤهم فيه ، حتى عبر عن ذلك بقوله : « ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » . « يهلك في رجلان : محب مفرط بما ليس في ، ومبغض يحمله شناني على أن يبهتني » .. وملتقى مع الشكوى والتمرد ، أو الرغبة في التجديد والاصلاح ، فصار اسمه علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب انصاف ، وصارت الدعوة « العلوية » كأنها الدعوة المرادفة لكلمة « اصلاح » .

فالتقت النفوس مع علي في وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ، وتلك مزية تفرد بها الامام .

وعن صفات الامام .. بين الكاتب أنـه أول هاشمي ولـد من أبوين هاشميين ، فتجمعت لديه كل صفات تلك الاسرة الكريمة من نبل ، وأيد ، وشجاعة ، ومروءة ، وذكاء .. وأبوه هو الذي سماه « عليا » بعد أن كانت أمه قد سمته « حيدرة » وعاش علي مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان سريع النماء ، متفوقا على أقرانه ، ونشأ قوي البنية ، واحتفظ بمكانة تركيبه في شبابه وكهولته .. وعدد الكاتب صفاته الخلقية ، مشيرا الى أنه كان

يتميز بقوة جسدية فائقة ، وأنه كان لا يبالي بحر ولا برد ، ولا يعني ذلك أنه كان فاقد الحس ، وانما كانت عنده مناعة لم يحظ بها معظم الناس ٠٠

ثم عدد صفاته الخلقية ٠٠ فبين أنه كان شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ، وجريئا على الموت لا يخشى قرنا من الاقران مهما كانت قوته ، وذاعت شهرته ، واستدل على ذلك بتجرئه وهو فتى ناشيء على ملاقاة فارس الجزيرة العربية « عمرو بن ود » الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ٠٠ وكان يزين تلك الشجاعة النادرة التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال ٠٠ واقترنت شجاعته بالاعتزاز والثقة ، وتمكنت الثقة من نفسه ، فحملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأي ، فكان يقول : « اسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة ، وتضل مائة ، الا آنبأتكم بناعقها ، وقائدها ، وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحط رحالها » ٠٠٠ وحملها الى ميدان العبادة والطاعة ، فكان يقول : « ما أعرف أحدا من هذه الامة عبد الله بعد نبينا غيري ٠٠ عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الامة تسع سنين » ٠

وهذه الثقة جعلته لا يتكلف ، ولا يحتال على أن يتألف ، ولا يقبل التكلف من مادحيه ، ولا يمكن أن تسمى هذه الثقة زهوا ، لان العجب كان من أبغض الصفات لديه ٠٠ وكانت قلة التكلف توافق منه خلقيته الكبرى من الشجاعة ، والبأس ، والامتلاء بالثقة ، والمنعة ، فكان يخرج لمبارزيه حاسر الرأس وهم مقنعون بالحديد ٠٠ كما وافقت منه خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء به الرجل على الضر والبلاء ، كما يجترىء به على المنفعة والنعماء ، فما تجاوز قول الصدق في شدة ولا رخاء ، وكان يقول : « علاقة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ٠٠٠ » ٠

وصاحبه صدقه الصراح في تقواه وايمانه ، فكان زاهدا كأعظم ما يكون الزاهد ٠٠ وكان أبعد الناس من كزازة طبع ، وضيق حظيرة ، وجفاء عشرة ٠٠ وكان يتبسط في سماحته حتى قيل : « ان فيه دعابة » ، وبالغ عمرو بن العاص فوصفها بدعابة شديدة ، في محاولة منه للقدح في صلاحيته للخلافة ، ورد الكاتب على هذا الادعاء ، مبينا أن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه ليس فيها دليل على خلق الدعابة ، فضلا عن الدليل على الافراط فيه ، وأن دعة علي حسبت من الدعابة البريئة ، ثم بالغ فيها المبالغون ، وليس لديهم اثبات على ما يدعون ٠٠

وكان للامام مزايا فكرية لا تقل عن صفاته النفسية ، ومحاسنه الخلقية ، فاتفقت الآراء على بلاغته ، وعلمه ، وفطنته ٠

وآداب الفروسية اعتبرها الكاتب مفتاح شخصية الامام ، ولخصها في النخوة التي فطر عليها ، وكانت من آداب أسرته الهاشمية ، وعادة من عادات الفروسية العملية ٠٠ فكانت نخوته تمنعه من أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية ، ومن أن يهتبل فرصة سانحة الا اذا قامت على الشرف ، وخير دليل على ذلك ما حدث في صفين ، حين استولى جيش معاوية على الماء ، وحرموا منه عليا وجنده ، واستطاع جيش علي أن يتغلب على جيش معاوية ، ويستولي على الماء ، فقال لاصحابه : « خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا الى عسكركم ، وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » وكذلك وصاياه لجنوده التي سن لهم فيها سنة النخوة في حرب البصرة ٠٠ وموقفه من عمرو بن العاص الذي عمد الى كشف سوأته بعد أن تمكن علي منه في معركة صفين ، ولو كان غير علي ما ترك تلك الفرصة التي كانت ستريحه من مكمن عداء ودهاء ٠٠

ونخوته هي التي حالت بينه وبين مجاراة خصومه في السباب ، لانه خير من يعلم بأن النخوة لا تبيح للفارس أن ينال من عدوه بغير الحسام ، واذا كان قد قال في بعض الظروف ما جعله يشذ عن تلك السنة ، فليس ذلك الا كما يشذ الفرسان ، حين تغلبهم بوادر اللسان ، وهذه الفلتات شيء ، واتخاذ السباب صناعة وسلاحا وسبيلا الى الباطل شيء آخر ٠٠

وكانت نخوة الفروسية لدى الامام يصاحبها نزعة الى التصوف ، واعتبر الناقدون أن هذه النزعة لا تمازج الفروسية ، ورد عليهم الكاتب بأن التصوف في معدنه جهاد في الحق ، أو جهاد في الله ٠

ولد علي في الكعبة ، وكأن ذلك كان ايذانا بعهد جديد لها ، وكاد أن يولد مسلما ، بل لقد ولد مسلما حقا ، فكرم الله وجهه عن السجود للاصنام ، وتفتحت عينيه على الاسلام ، وتربى في بيت النبوة ، وتطلع الى عبادة النبي وزوجه الطاهرة خديجة ، وأسلم صغيرا ، ولم تكن قرابته من الرسول هي سبب اسلامه ، فكم من أقرباء الرسول من تصدى له ، وتمسك بدين الآباء زمنا طويلا ، كما لم تكن الالفة بينه وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي السبب ، بل أوشكت أن تكون عائقا لاسلامه في طفولته الباكرة ، لولا أن علم أبو طالب بأمر الدعوة ، فنصر محمدا ، وأمر عليا بمتابعته ، فأقبل على الدين الجديد اقبالا لا تلجلج فيه ، فكان مسلما حقا في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ٠٠

وامتاز بالفقه الذي يراد به الفكر المحض ، والدراسة الخالصة ، فأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية ـ بلغة العصر ـ ٠٠ ولذا يمكن القول بأن الامام أبو علم الكلام في الاسلام ٠٠ ونهج

البلاغة قد حوى الكثير من الكلمات التي تنسب اليه ، ويصح أن تنسب أصلا للعلم الالهي ٠٠ كما يمكن القول بأنه كان يتتلمذ للقرآن الكريم ، ويستوحيه نصا في عرفان اسلامه ، وتقرير ايمانه ، فكان مبتكرا في نظرته الى الخلق والخالق ، وجاء في أقواله عن الخفاش والطاووس ما يدل على ذلك ، فكان مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، وكان اسلامه اسلام المطبوع الذي يبتكر دينه ، والحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس ، وتمحيص الفكر ٠٠ والرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربه ، ويتربى في حجر نبيه ، ويصبح اماما للمقتدين من بعده ٠

وعصر الامام انفرد بظاهرة اجتماعية لم تكن في عصور الخلفاء من قبله ، وهذه الظاهرة أن المجتمع صار ذا شقين : شق يؤيد النظام الاجتماعي القائم ، ويسعى الى بقائه وتدعيمه ، وهو حصة معاوية في الشام وما جاورها ٠٠ وشق ثائر على هذا النظام ، ويسعى الى تقويضه ، وهو حصة علي في الجزيرة العربية بكل أنحائها ٠٠

والشام يمكن وصفها بأنها أرض أموية منذ عهد الجاهلية ، حين لجأ اليها أمية بعد أن صارت الزعامة لهاشم ، وبعد ظهور الاسلام حيث كان يقصدها الامويون في تجارتهم وهجرتهم ، وتولى امرتها يزيد بن أبي سفيان في عهد الصديق ، ومعاوية في عهد الفاروق ، وظل واليا عليها بضع عشرة سنة الى أن بويع علي بالخلافة ، فثبت أركانه ، وأسس السلطان الاموي فيها ٠٠ وكانت سياسته مع السواد والاشراف وذوي الاخطار تقوم على أساس اجتذابهم نحوه كل بما يؤثر فيه ، الى حد أن قصده عقيل بن أبي طالب حين رفض أخوه الامام أن يجري عليه من بيت المال ، وكان يقول : « ان أخي خير لي في ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي » ٠ وساق الكاتب حادثة الدمشقي الذي ادعى على كوفي دخل دمشق بأن الناقة التي معه ملك له فقدها في صفين ، وحكم معاوية للدمشقي بالناقة ارضاء له ، وعوض الكوفي وأحسن اليه لما أخبره أنه جمل وليس بناقة ، وقال له : « أبلغ عليا أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » ٠ وهذا خير شاهد على دهاء معاوية في سياسته التي رسمها لينال تأييد الجميع ، فاجتمع له كل منتفع بهذا النظام ٠٠ وكانت له سياسته مع صيحات التمرد ، فيبادر باسكاتها ٠٠ فمن أسكته المال جعل المال سلاحه معه ، ومن كان جادا مخلصا في العبادة والزهد ولا يغريه المال ، احتال على ابعاده ونفيه من الشام ، كما فعل مع أبي ذر ، وعبد الله بن سبأ ، وغيرهما ٠٠ وما مر عام الا وازداد رصيده من الرضا والاستقرار ، حتى تحيزت له الشام جميعها عند مبايعة علي ٠٠

أما علي ٠٠ فأوشكت أن تنعدم دواعي السكينة والرضا والاستقرار في حصته من الدولة ، وظهر تنافس شديد بين أهل مكة والمدينة والكوفة ،

واستعصى عليه أن يرضي الجميع ، حتى ضاق به المقام في الحجاز ، فأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار » ٠٠ وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ٠٠ وكان المحرومون من العبيد والموالى والاعراب غير راضين عن حظهم من العيس بعد أن شرع لهم الاسلام بالمساواة والانصاف ٠٠ وفي الوقت الذي كان فيه أجناد معاوية يستجيبون للحق والباطل ، لانهم لا يميزون بينهما ، كان مع علي جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة الذين يحتكمون في كل شيء الى الكتاب والسنة ، ولا يؤيدون القتال ، ولا يستجيبون الا لما أباحوه أو استوجبوه ٠٠ كما كان في كفته الطامعون في الخلافة ، والمتطلعون اليها ٠٠ ومنهم من كان يحارب عثمان ثم صار يحارب عليا باسم عثمان ٠٠ ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ٠٠ ومنهم كبار الصحابة الذين انطلقوا في عهد عثمان ، فأثروا حتى ان أيدي الرجال كانت تمحل وهم يقطعون الذهب الذي خلفوه بالفؤوس ٠٠ وهؤلاء صاروا قادة التمرد على علي ، لانهم أدركوا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ، وعرفوا مذهبه في حساب الولاية والخلافة ، فليس مذهبه واليا أو خليفة بمريح أولئك الاغنياء والذين ذاقوا حلاوة الغنى ، وكرهوا أن يحرموه ، أو يحاسبوا عليه ٠٠ هذه النماذج كانت نصيب علي في حصته ، فكانت من أقوى أسباب القلق والتبرم والنفور ، على عكس نظرائهم في حصة معاوية ٠٠ بالاضافة الى ذلك ٠٠ فهناك علة اعتبرها الكاتب من أكثر العلل التي تبتلى بها دولة أو حكومة ٠٠ وهي اعتمادها في مواردها على غيرها ٠٠ في حين أن حصة معاوية كان فيها من سعة الثروة ما يسع كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ٠٠

وما يمكن قوله عن علي ومعاوية : أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، والاخر يعمل والحوادث عدة في يديه ٠

ولقد بويع الامام بالخلافة بعد فاجعة مقتل عثمان ، التي كانت بلاء لا يدفع ، وقضاء لا حيلة لاحد في اتقائه وألقى الكاتب الضوء على المآخذ التي أخذت على عثمان ، فأثارت النفوس ، ودفعت الى التذمر والتمرد ، فتألب الناس عليه من كل صوب ، حتى فلت الزمام ، وكان ما كان ٠٠ وبرأ العقاد عليا من دم عثمان ، وذكر أنه كان يقوم دائما برد الثوار عنه ، وفي المرة الاخيرة توسط بين الخليفة والثوار ، حتى استمهلهم عثمان ثلاثة أيام يحقق خلالها مطالبهم ، ومضت المهلة ، ولم تتحقق المطالب ، فأدرك الثوار أنهم مأخوذون بالانتظار ، فتسوروا الدار ، وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه ٠٠٠ وأتى برواية شداد بن أوس عن مقتل عثمان ، وكل ما فيها يبرىء عليا مما اتهم به ٠٠ وقد لعب مروان بن الحكم

دورا في ايغار صدر الخليفة على علي ، وأوقع من روعه أن عليا على رأس الساعين بين الناس بالكيد له ، وتاليب الثائرين عليه ، حتى جعل عثمان لا ينظر الى علي بعين المودة والثقة ٠٠

ولم يكن هناك أصعب ولا أحرج من موقف الامام ، فالثوار كانوا يعتبرونه المسئول الاول عن الاصلاح ، والخليفة يحسبه المسئول الاول عن تهدئة الموقف ورد الثوار ، وكانت حيرته بين تقريب عثمان له ، وابعاده عنه ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار ٠٠ وبعد مقتل عثمان ظلت المدينة خمسة أيام يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالامر ، ولا مجيب ٠٠ ألحوا على علي ، وطلبوا الزبير ، وطلحة ، ثم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، فلم يجدد الا الرفض ٠٠ فرجعوا الى علي ، وأخذ الاشتر النخعي بيده ، فبايعه ، وبايعه الناس حتى طلحة والزبير ، ونهج علي سياسة من أحسن السياسات ، فاخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية لمواجهة قوى الملك الدينوية ، وعزل الولاة المتهمين ، ورد أملاك المسلمين المسلوبة ، وسار على نهج الصديق والفاروق في تجنب كبار الصحابة المتطلعين الى الامارة فتنة الولايات ٠٠ ولعل هذا هو ما أثار عليه طلحة والزبير بعد أن بايعاه ، ولم تمضي أيام معدودة حتى تجمع على علي جميع الولاة المنتفعون في عهد عثمان ، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية ، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما يبغون ، فخرج الجميع وعلى رأسهم طلحة والزبير ، وطالبوا عليا بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي عنه ، وجمعوا حشودهم الى البصرة ، وكانت السيدة عائشة معهم تناصر طلحة القرابته، والزبير زوج اختها أسماء ،ولم تكن قد نسيت موقف علي في حادثة الافك حين أشار على الرسول بتطليقها ٠٠ وكانت وقعة الجمل التي انتصر فيها علي ، وقتل الزبير ، ومات طلحة متأثرا بجراح المعركة ٠٠ غير أن المعركة كشفت عن مصاعب القيادة لجنود الامام ، فكانوا آراء متباينة ، وأهواء متناقضة ٠٠ الثوار لا يستندون الى فكر أو روية ، والحفاظ والقراء في اجتهادهم يقرون هذا ، ويرفضون ذاك ، بل كان في جيشه من يعمل لصالح خصمه كالأشعث بن قيس ٠٠

ولم يبق أمام علي من الخصوم أقوى من معاوية ، فآثر علي — كعادته — خطة المسالمة ، والبدء بالاقناع في عدد من الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية ، والتي ظهر منها عنت معاوية ، ورفضه للمسالمة ، فوجد علي أن الصدام مع معاوية حتمي ، فزحف بجيشه الى صفين ، وكاد النصر أن يتم لعلي ، لولا خدعة رفع المصاحف ، وطرح قضية التحكيم ، واجبار علي من قبل أجناده على قبولها ، واكراهه على اختيار أبي موسى الاشعري ، وانتهت المأساة بتلك المهزلة ، أو انتهت المهزلة بتلك المأساة : خلع علي ، وتثبيت معاوية !! وصدق

قول علي في حق أنصاره : « ... ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الاخيب ... » .. وازداد موقف علي حرجا وصعوبة بحركة الخوارج الذين مردوا على الشقاق ، واتهموه وأصحابه بالكفر لقبولهم التحكيم ، وحاول الامام ردهم واقناعهم ، فأصروا على قتاله ، وبعد أن بدأوه بالعدوان ، ونفد صبره ، قاتلهم وهزمهم شر هزيمة ..

وتصدى الأشعث بن قيس لصرف الاجناد عن علي ، وتثبيط هممهم في محاربة معاوية ، في الوقت الذي علا فيه نجم معاوية ، وانضم اليه طلاب المنافع ، ولم يمض عامان ، حتى كانت معه مصر ، والمدينة ، ومكة ، وبقي علي في أرباض الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ..

ونسجت المقادير نسجها الاخير حينما اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص .. فنجا عمرو ، وأصيب معاوية ، وكانت الشهادة من نصيب الامام ، فضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم في جبينه وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وقبل أن يموت حذر بني عبد المطلب على العموم ، وابنه الحسن على الخصوص من المثلة القاتلة ، أو التعرض لغير قاتله ..

وانتهت الحياة النبيلة بعد أن قدمت معرضا حافلا بالعواطف الانسانية ، التقت فيه عوامل النخوة ، والشجاعة ، والوفاء ، والايمان ، والسماحة ، ولامست سيرة الامام النفس الانسانية في شتى نواحيها .. وتلك مزية الامام .

وقد لام الكاتب من جردوا الامام من خدع الحروب والسياسة . بحجة أنه لم يقبل مشورة الدهاة ، وأخفق فيما ارتآه وتساءل : أكان في وسعه أن يصنع غير ما صنع ؟ ولو كان في وسعه وصنع فهل العاقبة ستكون أسلم ؟؟ ورأى أن استجابته لآراء الدهاة لم تكن مضمونة النجاح ، ولا مأمونة الخطر ، وتناول الامور التي اعتبرت مآخذ عليه ، لمخالفته رأي الدهاة فيها .. كعزل معاوية من ولاية الشام ، وحزمه في معاملة طلحة والزبير ، وعزله لقيس بن سعد من ولاية مصر ، وعدم تسليمه لقتلة عثمان ، وقبوله للخلافة ، وحلل هذه المواقف أعظم تحليل ، وقلبها على وجوهها ، فكانت النتيجة أن عليا كان صاحب الحجة ، ورأيه كان الاصوب ، أو أنه لم يكن ليستطيع أن يفعل غير ما فعل ، وأن الغلطة التي وقعت منه ويقل الخلاف فيها هي : عزله لقيس بن سعد عندما تشكك من مؤازرته لمعاوية ، وقد عرف الامام خطأه في ذلك ، فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين : هذا الذي عزلناه — يعني قيسا — والاشتر » ولكن الاشتر مات في الطريق ..

ولقد سمع علي نفسه رأي أبطال الميدان في أسباب النصر والهزيمة ، وتمييزهم معاوية عليه بالدهاء والسياسة ، فقال : « ٠٠٠ والله ما معاوية بادهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس٠٠٠ » ٠٠ وعلل وضعه في قول آخر : « ٠٠٠ ولكنه لا رأي لمن لا يطاع » ٠٠ وعلل موقف أتباعه منه بقوله : « ٠٠ لم تكن بيعتكم اياي فلتة ، وليس أمري وأمركم واحدا ٠٠ اني اريدكم لله ، وأنتم تريدونني لانفسكم » ٠٠

أما خصمه معاوية ٠٠ فقد بين الاسباب التي أعانته على علي بقوله : « انه كان رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة وكنت ابادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا ، وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت » ٠

وكشف العقاد حقيقة اخرى ، وهي : أن معاوية لو كان في مكان علي لكانت هزيمة مرجحة بل مؤكدة ٠٠ ولم يقصد الكاتب بذلك أن يصف عليا بقوة الدهاء ، وسعة الحيلة ، وانما قصد أن يبرئه من عجز الرأي ، وضعف التدبير ، وساق أمثلة تكشف عن سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وحزمه ، ومعرفته للرجال والجماهير ، وقال : ان هذا كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة والعصر عصر خلافة ، وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها ، وتلفيق أجزائها ، وأنه اذا كان لا بد من ملك أو خلافة ، فلا يمكن أن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لانه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه ، ونياته ، ومعاونة أمثاله ٠٠

ورد الكاتب على الناقدين لعلي فوات الخلافة عليه منذ وفاة الرسول حتى فاجعة عثمان ، وبين ان ذلك كان لاسباب خارجة عن ارادة علي ، فهناك عامل العصبية ، وعامل السن ، وعامل الصنعة العالمية للدولة الاسلامية ٠٠

ومهما يكن من حكم الناقدين لسياسة الامام ، فمن التعسف أن يطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة ، وهي منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ٠٠ ومن التعسف أن يلام الامام ، لانه باء بشهادة الخلافة ٠٠ ولا بد لها من شهيد ٠٠

لقد كان في سياسته فهم وعلم ، وان لم يكن فيها الحيلة العملية التي هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ، فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة ، وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك ، واستغنائه عن المساومة والاسفاف ٠

ولو انتقلنا الى حكومة الامام ٠٠ نرى ان الفترة التي قضاها في الخلافة لم يبارحها الصراع لحظة ، وكان الصراع داخليا لم يتجاوز الحدود ، فانقضت أيامه وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية ، وانما كان لها سياسة داخلية ٠٠ فكانت سياسة مع رعاياه أساسها أن يكون الناس في الحقوق

سواء ، فلا اجحاف بالضعفاء ، ولا محاباة للأقوياء •• واستدل الكاتب علـى ذلك بموقفه من القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، وفرضه على ولاته الرفق بالرعية ، وساق مثالا من وصاياه لولاته ، ووصاياه في تحصيل الخراج والصدقات ، ودستوره في تحصيل الضرائب ، ودستوره في الولاة والعمال ••

ورد الاستاذ العقاد على من اتهموا عليـا بأنه آثر الاقربـاء بالولايات ، فأتى ما أنكره على عثمان من قبله •• وبين أن هذا نوع من المقارنة بالاشكال والحروف دون البواطن والغايات ، فظروف الامام قد اضطرته لذلـك بعد أن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الامصار ، وانه كان يحاسب أقاربه من الولاة على ما في أيديهم أعسر حساب ، حتى انهم كانوا يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها كما فعل ابن عباس حين هجـر البصرة الى مكة ، وكان يؤنب ولاته على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورهـا •• فكان الروح الانساني هو قوام الحكومة الامامية كما ينبغي أن يكون ••

وأثبت الكاتب للامام عذره في حرقه للروافض الذين ألهوه ، وأشار الى أن الحقوق العامة في حكومة الامام كان لها شأن لا ينسى مع حقوق الافراد ، وان اختياره للكوفة عاصمة للامامة العالمية كان أوفق اختيار ، لانهـا كانـت ملتقى الشعوب من جميع الاجناس ، لمكانتها التجارية الهامة ، ومركزها الثقافي الممتاز •

وعن النبي والامام •• ذكر الكاتب أن هناك العديد من الاحاديث المتواترة في فضل علي ومحبته ، منها ما انفرد به كحديث الخيمة الذي رواه الصديق ، ومنها ما اشترك فيه مع غيره كما جاء في رواية عائشة حين سئلت عن أحب الناس الى رسول الله ، واستخلص من آراء المتشيعين لعلي أو عليه في تأويل هذه الاحاديث ، ان عليا كان من أحب الناس الى النبي ان لـم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ، فهو ابن عمه الذي كفله ، وربيبه ، وزوج أحـب بناته اليـه ، وبديله في الفراش ليلة الهجرة ، ونصيره في غزواته ، وتلميذه الـذي تعلم على يديه ، لذلك لم يقف الامـر عند حب النبي لـه ، وانما كان يحببـه الى الناس ، وذكر الكاتب العديد من أقوال النبي في ذلك ، ومنها : « أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله انه لجيش في ذات الله » ولاح له أن النبي بذلك ، وبما وكل اليه من أعمال ، كان يهيئه للخلافة في وقت من الاوقات ، على أن يكون اختيار الناس له طواعية وحبا ••

وعن علي والصحابة •• بين الكاتب أنها كانت علاقة زمالة مرعيـة ، وتنافس يثوب الى الصبر والتحمل والتقية ، فلم تربطه بهم الفة حميمة ، ولم تقصه عنهم عداوة وبغضاء ، فليست طبيعته بالتي تحقد على الناس ، وان حقد الناس عليها وأفرطوا •• وألمح الى موقفه من الخلفاء السابقين ، وأنه كان يرى

نفسه أحق بالخلافة ، ولقد تخلف ستة أشهر عن مبايعة الصديق ، ثم قال له يوما : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى ان لنا في هذا الامر حقا ، فاستبددتم به علينا » ·· ومع ذلك فقد أظهرت أحاديثه أنها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولم تسجل عليه كلمة تستغرب من مثله ·· وأعان الخلفاء السابقين برأيه وعلمه ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله ، وكان وفيا معهم في حياتهم وبعد مماتهم ، ومخطىء من يستند الى فتواه في مقتل الهرمزان كدليل على كراهيته لعمر ، أو نقمة منه في أبنائه ··

وكان أعرف بالعهد ، وأصون له حتى في حومة الحرب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع طلحة والزبير في وقعة الجمل ··

ولم يرزق الالفة الحميمة ، لانه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة والحسد ·· فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الارومات ·· فان لم يحسد هذا فمن يحسد ؟

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها ، وبين آلها وأنصارها ···

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الالفة ·· والعلاقة بينه وبين خصومه كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ·· والعلاقة بينه وبين سواء العامة كانت علاقة غرباء يجهلونه ، ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبون ، وباعده اناس نافرون ·· وتلك أيضا آية الشهيد ·

وفي تناول العقاد لثقافة علي ·· تعرض للقب الامام الذي اختص به ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف لسواه ، مع ان من سبقوه من الخلفاء كان كل منهم اماما !! وأرجع ذلك الى أن الامامة في عهد الخلفاء لم يكن عليها صراع ، فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تزييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ·· ولقد تفرد الامام باتصاله بمذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت ، واتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقة والشريعة ، وعلماء الادب والبلاغة ، فهو استاذ هؤلاء جميعا ، ومن هنا كان الاجدر بلقب الامام واتفق للامام في صفة الامامة ــ كغيرها من جل صفاته ــ آية من آيات الشهداء ، وهي بخس حقهم في الحياة ، واعطاؤهم فوق حقوقهم بعد الممات ·· فنحلوه ديوانا من الشعر ، وعلما يسمى بعلم الجفر ، ومقامات خلت من حرف الالف ، وأقوالا لم تعرف من مصطلحات علم الكلام ، وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ، ويرفعه شأنا ألا تصح نسبته اليه ··

والامام نظم الشعر ، ولكنه لم يمتلك الاجادة فيه ، وكان ناقدا خبيرا ، وما نسب اليه في التوحيد ، والقضاء ، والفقه ، وعلم النحو ، وفن الكتابة ، وفرائد الحكمة ٠٠ هذه كلها ذخائر يمكن أن تكون أساسا لموسوعة المعارف الاسلامية ٠٠

وللامام فضل كبير في انشاء علم النحو ٠٠ وهو الذي أضفى صبغة الانشاء على الرسائل والعظات ، وكلمة الجوامع طراز فريد في حكمة السلوك على اسلوب الامثال السائرة ، وكل نمط من أنماط كلامه شاهد له بالملكة الموهوبة من قدرة الوعي ، وقدرة التعبير ٠٠ فهو — ولا شك — من أبناء آدم الذين علموا الاسماء ، وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب ٠٠

أما ثقافته العسكرية ٠٠ ففنه العسكري فن بطل مغوار يناضل الافراد ، وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة ، واذكاء الحماسة ، وتعزيز الثقة بين صفوفه ، ويعرف كيف يهجم في الوقت الملائم ، وكيف يحتال على عدوه لتوهين عزمه ، وساق الكاتب بعضا من وصاياه في تسيير الجيوش ، وتأديب الجند ، ومعاملتهم لسكان البلاد ٠٠

وعلى العموم ٠٠ فثقافة الامام ثقافة الفارس المجاهد بسيفه وقلمه ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه ، فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحقه ونجواه ٠

ولقد كان للامام رأي خاص في المرأة ، خلاصته : أنها شر كلها ، وشر ما فيها أنه لا بد منها ، وكان يرى أن « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو ، والجبن ، والبخل ٠٠ فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » ٠٠

وكان يتلطف بالمرأة ، ويصفح عن عدوانها ، متأثرا في ذلك بآداب الفروسية التي طبع عليها ٠٠

ولم يكن رأيه في المرأة مستمدا من حياته البيتية ، وانما من ثقافته ومعرفته لآراء الاقدمين فيها ، والا فقد كانت حياته على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ٠٠ عاش مع السيدة فاطمة ، ولم يتزوج باخرى في حياتها حتى ماتت بعد النبي بستة أشهر ، وكان وفيا لها ، وأنجبت له الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ٠٠ ولما ماتت تزوج بعدها ، وكان وافر الحظ من الذرية ٠٠

وكان أبا سمحا يستريح الابناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأي ، وكان يشعر بالزهو حينما يحيط به أبناؤه في محافل الروع أو مشاهد الزخرف ، وزهوه كان زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ٠

ومن أقواله : « إن للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقـا ، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويحسن أدبه ، ويعلمه القرآن » ٠٠

وكانت عيشته عيشة زهـد وكفاف : يطحـن لنفسه ، ويأكـل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته ، ويلبس الرداء الذي يرعد فيه ٠٠

وعموما ٠٠ لم يمت أحد من رعاياه عن نصيب أقل من النصيب الـذي مات عنه وهو خليفة للمسلمين ، في وقت كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا ، ولكن بيته كان نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ٠

ان الشجاع جريء على الدنيا ، لانه لا يبالي الحياة ، والزاهد جريء على الدنيا ، لانه لا يبالي النعيم ، وطالب الحقيقة جريء على الدنيا ، لان غايته من ورائها ٠٠٠ والامام خلق متجرئـا على الدنيـا بشجاعتـه ، وزهده ، وطلبه للحقيقة ، فأي مصير ينتظره غير الشهادة ؟ انه مستشهد حتى ولو مات على سريره ، وحياته آيات من آيات الشهادة ٠٠٠ ولئن كـان قد أخفق ٠٠ فانـه أخفق حيث يشرفه الاخفاق ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الاقدار في مثل مكانه ، ولا يمكن القول : بأنه أخفق في العمل لانـه لم يغلب القدر ، فذلـك تكليف بما لا يطاق ٠٠

وبفوز الامام بالشهادة ٠٠ كانت نهاية البداية ، وبداية النهاية ٠

ولا يسعني في النهاية الا أن اقدم تحية اعجاب بالبطل والكاتب ٠٠ هذا في طهارة نشأته ، وعراقة أرومته ، ونقاء سريرته ، وعلو همته ، وقوة ارادته ، وغزارة علمه وثقافته ، وروعة زهده وحكمتـه ، وصدق ايمانـه وشجاعته ، وثباته على الحق ونصرته ، وتضحيته في سبيله بروحه ومهجته ٠٠ والآخر ٠٠ في جمال عرضه ، وصحـة نقده ، وقوة رده ، وحلاوة لفظـه ، ودقة فهمه ، وبراعة فكره ، ونبل قصده ٠٠

تحية ٠٠ وألف تحية ٠

مهـدي عبـد الحميـد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان

تقديم

فى كل ناحية من نواحى النفوس الانسانية ملتقى بسيرة علي بن أبى طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطـال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل .

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة[1] والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم[2] وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية[3] جيـاع ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الـكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العـلاء لا يظن به التشيع بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشـهيد ين علي ونجـله شـاهدان
فهمـا فى أواخـر الليـل فجرا ن ، وفى أوليـاته شـفقان

وهـذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلمـا تبلغها فى سـير الشـهداء غاية ، وكثيرا ما تتعطش اليها سرائر الأمم فى قصص الفـداء التى عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الانسانية

---

(١) أي المتوقدة . (٢) أي اكسبهم جلالا وعظمة . (٣) أي الموت .

فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار[1]. فهو الشجاع الذى نزعت به الشاعرية الانســانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك فى تعظيمه شــهود العيان وعشاق الأعاجيب ... ألم يحارب المردة[2] فى فلواتها ؟ .. ألم يخلق له الرواة أندادا من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالبون فى الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟.. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال

وتلتقى سيرته — عليه رضــوان الله — بالفــكر كمــا تلتقى بالخيــال والعاطفة ، لأنه صــاحب آراء فى التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الاسلامية ، ولأنه أحجى[3] الخلفــاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين ، فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطــرة قبل أن تحسه فى نتيجة العمل ومجرى الأمور ..

وللذوق الأدبى — أو الذوق الفنى — ملتقى بسيرته كملتقى الفــكر والخيال والعاطفة ، لأنه رضوان الله عليه كان أديبــا بليغــا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمــده المتــذوقون ، وان تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشىء الذى يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين ..

وللنفس الانســانية نواحيهــا الكثيرة غير نواحى العطف والتخيــل والتفكير ، وتذوق الحسن الجميل من التعبير

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان ، وهى ناحيــة الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشبة أبدا على رأى من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

---

(١) أي الاعماق · (٢) العتاة · (٣) أي أجدر ·

فقد يفتر[1] العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين

وان ها هنا للمجال الرغيب[2] والملتقى القريب فى سيرة هذا الامام الأوحد التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى ، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى » .. أو حين قال : « يهلك فى رجلان : محب مفرط بما ليس فى ومبغض يحمله شنآنى[3] على أن يبهتنى[4] »

وصدق الامام الكريم فى غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق[5] من الدين : هنا الروافض الغلاة[6] يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستتيبهم فيصرون على الكفر أى اصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون الى الحفيرة الموقدة : انه الله وانه هو الذى يعذب بالنار ! ..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة الى الله عن عصيانه .. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم فى العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه فى تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول اناس : اله . ويقول اناس : كافر مطرود من رحمة الله !..

وناحية أخرى من نواحى النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الامام فى أكثر من طريق : وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والاصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادى بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة فى

---

(١) فتر يفتر فتورا وفتارا : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، والفتر : الضعف . (٢) الواسع . (٣) بغضى . (٤) بهته : قال عليه ما لم يفعله . (٥) بالخروج . (٦) المجاوزون الحد .

حيـاته ، وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو كأنها المنفس الذى يستروح اليه كل مكظوم .. فمن نازع فى رأى ، ففى اسم علي شفاء لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم[1] ففى اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال او بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي فى وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ، وتلك هى المزية التى انفرد بها تاريخ الامام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج[2] تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون...

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يئول بها الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحى سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها ، فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة[3] ، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيدا على الخيل والشعور والتفكير

لهذا نعلم غير مترددين فى علمنا أن واجبنا فى « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفى علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير ، نرجع « بعبقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى

نرجع من عشرين طريقا الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدى اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

عباس محمود العقاد

---

(١) ظلم • (٢) أي صلات • (٣) لاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه •

صفـاته

المشـهور عن على كرم الله وجهـه انه كان أول هاشـمى من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين ، وهى فى جملتها النبل والايد[1] والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور فى سماتها[2] الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبـد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيـل ان اسمه الذى اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيهـا أسـد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان على أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل ان عقيلا كان أحب هؤلاء الأخوة الى أبيه ، فلمـا أصاب القحط قريشا وأهاب[3] رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحمـلوا ثقل أبى طالب فى تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليـكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم . فأخذ العبـاس طالبا وأخذ حمزة جعفر وأخـذ النبى عليه السـلام عليـا كما هو مشهور . فعوضه ايثار النبى بالحب عن ايثار أبيه ، ولكنه عـرف هـذا الايثار فى طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر فى نفسه على ما يبـدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد

---

(١) جمع يد ، ومـن معاني اليد : القوة والنعمـة والاحسان . (٢) أي علاقاتها . (٣) أهاب بعميه : أي دعاهما .

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج فى صباه

وربما صح من أوصاف عليّ فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة ، لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدق فهمها والتنبه لها على من كان فى مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين[1] البنيان فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه المكين حتى ناهز[2] الستين ..

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة انه كان رضى الله عنه ربعة أميل الى القصر ، آدم — أى أسمر — شديد الادمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، أغيد[3] كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش[4] السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا . وكان أبجر — أى كبير البطن — يميل الى السمنة فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن[5] الكفين ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لايلوى على شيء

وتدل أخباره — كما تدل صفاته — على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحدا الا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان

---

(١) قوي • (٢) قارب • (٣) الانسان المائل العنق • (٤) شاش : جمع مشاشة ، وهي : رأس العظم الممكن المضغ ، وأمش العظم : أقخ • (٥) شثنت كفه : خشنت وغلظت •

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه انه كان لا يبالى الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارىء الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثيـاب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعث الى وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله ، انى أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ .. »

***

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشـتد ولم يتخذ له عدة من دثار(١) يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيـه : دخلت على على بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق(٢) قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم(٣) شيئا ، وما هى الا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة ...

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء ، انما هى مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس .

وكان الى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة(٤) ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا(٥) من الأقران بالغـا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصـحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا فى الحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح على : أنا له يانبى الله .. قال النبى وبه اشـفاق عليـه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادى : ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون الى رجلا ؟ .. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمـرو ، وهو يجيبـه :

---

(١) كل ما كان من الثياب فوق الشعـار . (٢) البالي . (٣) أي مـا أنقصكم ، أو ما أصيب من أموالكـم . (٤) مقاتلة . (٥) القـرن : كفؤك في الشجاعة .

وان كان عثرا .. حتى آذن له فمشى اليه فرحا بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص .. ثم نظر اليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد منـاف ؟.. قال : ابن أبى طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخى .. من أعمامك من هو أسن ، وانى أكره أن اهريق دمك ، فقال له على : لـكنى والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل علي الضربة بدرقته فقـدها[1] السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما انجلى الا عن عمرو صريعا وعلي يجأر بالتكبير

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى[2] علي مصابه ، لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة الا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتـل عمرو غير قاتله
بكيته أبدا ما دمـت فى الأبد
لـكن قـاتله من لا نظـير له
وكان يدعى أبوه بيضـة البلد

***

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا انها ازدانت بأجمـل الصـفات التى تزين شـجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعـرف النـاس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجـاهدة رأى . وهى التورع عن البغى ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن[3] على العدو بعد الفراغ من القتال...

فمن تورعه عن البغى ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبـدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة[4] عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون

(١) من معاني القد : التقطيع . (٢) من الأسى هو الحزن . (٣) الحقد .
(٤) أي سعة .

الى مبارزة . فان دعيت اليهـا فأجب . فان الداعى اليها باغ والبـاغى مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له: انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقـال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فمـا رفع يده بالسيف قط الا وقـد بسطها قبل ذلك للسلام...

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصـاح معجبا اعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب ..

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ود : انى لا أكره أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب فى اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتـال فأنف ، وقال : اذن تتحدث العرب بفرارى ، وناشده : ياعمرو . انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين[1] الا أخذت منـه احداهما . قال : أجل . قال : فانى أدعوك الى الاسلام أو الى النزال . قال : ولم يا ابن أخى ؟ .. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يقتله أويقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد[2] فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصـحابه عندهم الا بمقـدار ما استحقوه فى موقف الساعة : فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصـحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى :

---

(١) الخلة : الخصلة . (٢) أي الشدة في العداء .

من يبارز ؟.. فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟.. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان فى الصف الأول الى الصف الذى يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدل[1] بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . ان الله عز وجل يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص[2] » ، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه .

أما مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين[3] عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ[4] لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ .. فانتهره وهو يقول : ويحك ؟.. انا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟.. وانه لفى طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

---

(١) أي المعجب المغرور . (٢) من الآية : ١٩٤ من سورة البقرة .
(٣) الذين يجمعون الناس عليه بالظلم والعداوة . (٤) أجاز .

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن السيوف .. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت[1] وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي .. فلما وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : انما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سنته[2] مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر[3] القتال ..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه الا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وان كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين ..

***

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح[4] للماء ، أو بالاشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التى نشير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال

وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته ، وان شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير اليه ، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى

(١) أظهرت ضجرها ، أو قالت : أف . (٢) أي طريقته . (٣) حقد ، والضغن ، والعداوة ، والتوقد من الغيظ ، ووغر القتال : أي شدته . (٤) بالرسن .

صورة الاعتزاز ، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله فى مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى ارهاب عدوه واضعاف عزيمة من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التى تعمد اليها الجيوش لاعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه[1] به فى غير حاجة الى التيه

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لعلهم أوجبوا عليه — أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والاشادة بغزواته ، وعلموا انهم — وقد احتاجوا الى شجاعته — محتاجون كذلك الى فخره وحماسته وايقاع الرعب فى جنان[2] قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهى أحب القصائد الى القلوب

***

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع انها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا لهالا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره ، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخر والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام ..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه

وكانت هذه الصفة من صفات علي رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله ، وينكرها من ينفس[3] عليه فيسميها الزهو

---

(١) يتكبر · (٢) الجنان : القلب · (٣) أي يحسده ·

أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله فى بنى غنيم ، فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك عليٌّ يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبى طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التى يمتلىء بها الشجاع والثقة التى تتراءى مكشوفة فى صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يتعمد ابداءها ..

***

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعته الطفولة الباكرة يوما أن يعلم انه شىء فى هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير . ولقد كان فى العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم (١) القرشيون بالنبى عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه فى وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع فى مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع (٢) يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان عليا فى تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو فى الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده فى تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

عليٌّ هذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعليٌّ هذا هو الذى تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه

(١) السادة . (٢) فزع .

ويحدره العاقبة التى حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبى : اجلس . انه عمرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولايعرف الا الشجاعة التى هو ممتلىء بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث .

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس[1] الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان يقول : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها » .

ومن شواهدها انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق : « ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى ، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين » .

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته ، فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخوانى المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... » .

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول : « اذا احتشتم[3] المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التى اؤتمن اليها ، فيحسبون انها الجفوة البينة

(١) مزاولة . (٢) يرجمونه بالمروق : يرمونه ويتهمونه بالكفر .
(٣) جشيم الامر جشما وجشامة وتجشمه : تكلفه على مشقة .

وأنه الزهو[١] المقصود وما هو بهذا ولا بتلك .. انما هى شجاعة الفارس بلوازمها التى لا تنفصل منها ، وانما هو امتعاض[٢] المغموط المسىء ظننا عن حوله يتراءى على سجيته فى غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراه[٣] ألا يتكلف الاخفاء ، فاذا التفت قاصدا الى ما فى نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشتد فى اجتنابه ، ويوصى من أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » ... « واعلم ان الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب[٤] »

نعم كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فربما أفرط الرجل فى الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك » .

***

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة ، وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء .. كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجىء منه على البديهة كما تجىء الأشياء من معادنها : كان مثلا يخرج الى مبارزيه حاسر[٥] الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج اليهم حاسر[٦] النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحيانا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه فى غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساترا ما ستر ، أو كاشفا ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها .. أو هى قريبة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترىء به الرجل على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء . فما استطاع

(١) من معاني الزهو : الكبر والفخر · (٢) غضب · (٣) أي غايته
(٤) العقول · (٥) حاسر الرأس : مكشوف الرأس · (٦) أي الحناء ·

أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس اليه : انه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك » ..

***

وصدق فى تقواه وايمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه .. فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة دنيا أو سيب[١] دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض عليا وتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة[٢] على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارا للخصاص[٣] التى يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ .. فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار الى ثيابه ـ فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة[٤] طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى

(١) العطاء ، والعرف ، ومردى السفينة ، وشعر ذنب الفرس (٢) ما يبني به ، وهو معرب . (٣) جمع خص ، وهو البيت من القصب (٤) اليبس والانقباض .

يقال:دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وانه قال لمن سألوه فى الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلى أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق ».

***

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها « دعابة شديدة » وطفق[1] يرددها بين أهل الشام ليقدح[2] بها فى صلاح الامام للخلافة ، وانما نقول: ان ابن العاص أغرق فى هذا الوصف ، وان الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ عليٍّ وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الافراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينا الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه .

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال .

والحق الذى لا مراء فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

(١) أي أخذ . (٢) أي ليعيب

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس فى رأيه رأيين وان لم يكونوا من الشانئين[1] المتحزبين ، فيقول أناس: انه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة[2] ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس: بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه فى الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بشابه من هـذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » ..

***

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله فى مواضعه من الفصول التالية مشفوعا بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم[3] هنا بحقيقتين تجملان ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل ، وهما: أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع[4] فى فض المشكلات من العمل برأى الامام ، وان أحدا لم يثبت قط أن خصوم الامام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه ، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حرية[5] أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك

هـذه صفات تنتظم فى نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصـدق لا يدور بصاحبه مع الرضـا والسخط والقبول والنفور ، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صـفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شىء منها الا الذى اصـطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه الى صميم .

---

(١) المبغضين ٠ (٢) الامر الحازب : الشديد ٠ (٣) نقطع ٠ (٤) الناجع: المفيد ٠ (٥) أي جديره ٠

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير

وآداب الفروسية هى تلك الآداب التى نلخصها فى كلمة واحدة وهى : النخوة [1]..

وقد كانت النخوة طبعا فى عليّ فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التى يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها . لأن للغلبة فى الشجاع انفة تأبى عليه أن يسفّ [2] الى ما يخجله ويشينه [3] ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمل فى السر ما يزرى [4] به فى العلانية .

وهكذا كان علي رضى الله عنه فى جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ، ولم يساوره [5] الريب قط فى الشرف ، والحق انهما قائمان دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا كثيرا وباء [6] هو بالخسار ..

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل [7] الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

---

(١) الفخر والعظمة . (٢) يطلب الامور الدنيئة . (٣) يعيبه
(٤) يحتقر . (٥) يأخذ برأسه . (٦) باء : رجع . (٧) يغتنم وينتهز .

بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة — أي مورد الماء — فهي فى أيديهم .. وقد أجمعوا على أن يمنعونا المـاء . ففزعنا الى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة ابن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له:انا سرنا مسيرنا هذا اليكم ونحن نكره قتالكم قبـل الاعذار اليكم ، وانك قدمت الينـا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهـذه أخرى قد فعلتموها اذ حلتم بين الناس وبين المـاء ، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين المـاء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوى الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل[1] بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى المفاوضة فى أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مددا الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء عليٌ أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده اليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من المـاء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه انصافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المـال ويستبيحوا السبى وهو فى رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر »

---

(١) غير مهتم ولا مبالي .

وسن لهم سنّة الفروسية أو سنّة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا الى مال .

ومن الفرص التى أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة[1] لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف[2] بوجهه عنه آنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا يرضاها من منازله فى مجال صراع . ولو غير عليٍّ أتيح له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح[3] عليه .

***

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها ..

فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال ولا ميتا ذهبت حياته ولو ذهبت فى سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه .

وهذه الفروسية هى التى بغضت اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب[4] الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام[5]

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتهم حالهم كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضـلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى[6] عن الغى والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنّته هذه فى بعض الأحايين فاذا به لا يشذ عنها الا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان .. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لســانه بكلمة عوراء[7] يجارى بها

(١) العورة . (٢) صدف عنه : أعرض . (٣) اثم . (٤) الدأب : العادة والطبيعة . (٥) السيف . (٦) ويكف . (٧) قبيحه .

غضبه الذى طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانه ..

ومن قبيل هـذا كلمات قالها عليّ في ابن العاص وفي معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدنا[١] له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار ..

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجنـد وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وان امرأ ولى على قومه السيف وساق اليهم الحتف[٢] لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد » .

***

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وادحاض[٣] زعمه . فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : عجبا لابن النابغة !.. يزعم لأهل الشام ان فى دعابة وانى امرؤ تلعابة[٤] : اعانس وامارس[٥] .. لقد قال باطلا ونطق آثما . أما ــ وشر القول الكذب ــ انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الآل[٦] ، فاذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته . أما والله انى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وانه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة (٧) .

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل

---

(١) الديدن : الدأب والعادة (٢) الموت . (٣) ابطال . (٤) أي كثيـر اللعب غير جاد . (٥) مضاربة الناس مزاحا ومغازلة النساء . (٦) القرابـة والرحم . (٧) العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة .

شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا الى القول الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للامام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حينا وتبدو غريبة عنها حينا آخر فى عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع الى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء ..

***

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟.. أليس هو فى معدنه جهادا فى الحق أو جهادا فى الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟.. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون(١) ، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالامام علي رضى الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجه من الفروسية بعض المقال فى خصومه بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتـاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فاذا هو منكشف للناظر عما يليه .

---

(١) التنطيس : التأنق في الطهارة ، وفي الكلام ، والطعم ، والملبس ، وفي جميع الامور ، والنطيس : العالم ٠

اسـلامه

ولد على فى داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة[1] ايذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها

وكاد علىّ أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبرّه . وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسّه ابن أبى طالب ويأوى اليه ..

واختلفوا فى سنّه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ونعله أسلم فى نحو العاشرة لأنه كان يناهزها[2] عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبى عليه السلام يتعبد فى بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع عليا أن يألف تلك العبادة فى طفولته الباكرة فاذا هو نفر منها ، وأعرض عنها لغير سبب فى تلك الطفولة البـاكرة فالعجيب انه يعود الى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التى يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد ..

---

(١) هناك . (٢) أي يدنو منها ويقاربها .

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذى دعى اليه ، فقد أصرّ كثير من أقرباء النبى على الشرك زمنا طويلا ، منهم عقيل أخوه وأحب اخوته الى أبيه . فحارب المسلمين فى بدر ولم يسلم وقد وقع فى أسر النبى وصحبه .. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..

***

على ان الألفة بين ابنى العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لاسلام علىّ فى طفولته الباكرة .. لأن النبى عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون برُّه بعمه وبابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لايدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعوّد الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو فى سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم .. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونَصَر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونَصَره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجلج(١) فيه على الدين الجديد ..

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب(٢) يكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله(٣).. فبحق ما يقال: إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته(٤) المثلى ، وان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه.

كان المسلم حق المسلم فى عبادته ، وفى علمه وعمله ، وفى قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال: انه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى فى كهولته وكأنما جبهته ثفنة(٥) بعير من ادمان السجود

(١) لا تردد . (٢) الخلط . (٣) العقابيل : بقايا العلة ، والعداوة ، والعشق . (٤) السجية : الخلق والطبيعة . (٥) أي ركبة .

وكان علىّ محجة فى الاسلام لا يحيد[1] عنها لبغية[2] ولا لخشية ، فكلما زينوا له الهوادة[3] أبى « أن يداهن[4] فى دينه ويعطى الدنية فى أمره » وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه[5] ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وان بهته[6] وآذاه ..

***

وجد درعه عند رجل نصرانى فأقبل به الى شريح — قاضيه — يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعى ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟.. قال النصرانى : ما الدرع الا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! .. فالتفت شريح الى علىّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟.. فضحك علىّ وقال : أصاب شريح . ما لى بينة ! .. فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يديننى الى قاضيه يقضى عليه !.. أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق[7] . فقال : أما اذا أسلمت فهى لك . وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء فى قتال الخوارج يوم النهرون .

وأحسن الاسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التى امتاز بها علىّ بين فقهاء الاسلام فى عصره انه جعل

---

(١) يميل . (٢) أي لمأرب . (٣) اللين . (٤) ينافق ويغش . (٥) قلاه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه في الهجر ، وقلية في البغض . (٦) قال عليه ما لم يفعل . (٧) ما في لونه بياض الى سواد .

الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة واجراء الأحكام ، فاذا عرف فى عصره اناس فقهوا فى الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز علىّ بالفقه الذى يراد به الفكر المحض[1] والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص فى أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها فى هذه الايام

***

ويصح أن يقال: ان عليا ، رضى الله عنه ، أبو علم الكلام فى الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبى هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علىّ رضى الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبى الحسن عليّ بن أبى الحسن على بن أبى بشر الأشعرى وهو تلميذ أبى على الجبائى ، وأبو على الجبائى أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فامامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر الى عليّ رضى الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على عليّ رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

***

قال ابن أبى الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت ان أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الاسلام اليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقة التى هى شعارهم الى اليوم ، وكونهم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التى تنسب اليه

(١) الخالص .

ويصح أن تحسب أصلا « للعلم الالهى » أو لأسرار التصوف فى صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك فى نسبة بعض الكلمات الى علىّ رضى الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج(١) بها ما لابد أن عازجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئا على هذا النهج لابد أن يكون قد صدر منه حقا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت به الأقوال ، وأجمله ابن أبى الحديد فيما تقدم ..

***

ولنا أن نقول،انه كان رضى الله عنه يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصا فى عرفان اسلامه وتقرير ايمانه . فكانت نظرته الى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ فى الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب انما هو الدرس القرآنى الذى وعاه من أمر الكتاب بالنظر فى المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة فى الأرحام . فهو تلميذ ربه جلّ وعلا فى قوله عن الخفاش : « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حى ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا . والنهار لها سكنا وقرارا ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا(٢) الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجىء اليها ، يقع اذا وقعت ، ويرتفع اذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان البارىء(٣) لكل شيء على غير مثال خلاف غيره » .

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقا الطاووس الذى أقامه

---

(١) أي اختلط . (٢) جمع شظية ، والشظية : كل فلقة من شيء .
(٣) الخالق .

فى أحكم تعديل ونضد[1] ألوانه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه ، اذا درج الى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مظلا على رأسه .. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا ، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون فى غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الامام علىّ رضى الله عنه . لأنه كان عهدا نبتت فيه أصول الفرق الاسلامية جميعا من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب .. فأقرب شىء الى المعقول أن يكون امام العصر كله قدوة فى الاجتهاد والنظر وعنوانا للنوازع التى تفرقت بين آهل زمانه وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التى قدمناها وان لم تكن هى اياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى آمور ، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لايراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم يابنى ان أحب ما أنت آخذ به الىّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا ان نظروا الى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم . لا بتورط الشبهات ، وعلق الخصومات ، وابتدىء قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك ، والرغبة اليه فى توفيقك ، وترك كل شائبة[2] أولجتك[3] فى شبهة أو أسلمتك الى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان

---

(١) أي نسقها وجعل بعضها فوق بعض · (٢) الشوائب : الاقذار والادناس · (٣) أدخلتك ·

همك فى ذلك همّا واحدا ، فانظر فيما فسّرت لك .. »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام عليّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو اسلام المسلم « المطبوع » الذى يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه ، وانما هو اسلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس على سنّة النساك[1] وتمحيص[2] الفكر على سنّة العلماء ، وانما هو اسلام الرجل الذى أتيح له أن يتتلمذ لربّه ويتربى فى حجر نبيّه ويصبح اماما للمقتدين من بعده ..

---

(١) النساك جمع ناسك ، والناسك : العابد . (٢) التمحيص : الابتلاء والاختبار .

عصر الامام

كانت الظاهرة الكبرى فى عصر « عليّ » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن فى حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التى أريقت فى حروبها ..

فعصر أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الاسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذى تمّ فيه انشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الاسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المُرشحة للرئاسة من العلية[1] وأشباهها ..

أما عصر علىّ فكان عصرا عجيبا بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه أو هو لم يكن عجيبا لأنه جرى على النحو الذى ينبغى أن يجرى عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديدا فى سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائما مفروغا منه فكله رسوخ واستقرار ..

الا ان العجيب فيه حقا انه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقائه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه[2] وتحويله

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعى ، كان قسم معاوية

---

(١) أشراف القوم . (٢) أي لهدمه .

ابن أبى سفيان فى الشام وما جاورها

والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعى ، كان قسم علي ابن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضا أموية فى عهد الجاهلية فلجأ اليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصـد اليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الاسلامية

ثم قامت الدعوة الاسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الامارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيما على امارتها بضع عشرة سنة الى مبايعة عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها . فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد[1] من الأتباع والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه ارضاؤه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ..

واشتهرت عنه هـذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس الى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو علي بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمرو بن العاص ، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « ان أخى خير لى فى دينى ، ومعاوية خير لى فى دنياى » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن علىّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء .

قد همه ارضـاء السواد والعامة ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوى الأخطـار .. « وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب

---

(١) عامة الناس .

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى بصفين فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته .. فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه . فقال الكوفى : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له : « أبلغ عليًّا انى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها [1].

فان كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء [2].

وما هى الا سنوات على هذه الوتيرة [3] حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد ، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال .

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه فى هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى [4] معه المال أسكته باغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والاخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه [5] أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير ، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق فى سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثامن · (٢) الكذب ·
(٣) الطريقة · (٤) نفع وأفاد · (٥) ابعاده ·

فى سبيل الله بمكاو من نارٍ تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »

فأشفق معاوية من مغبة[1] هذه الصيحة وأرسل الى أبى ذر ألف دينار يسكته بها ان كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدى المعوزين[2] الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذى حمل اليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدى من عذاب معاوية فانه أرسلنى الى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يابنى ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار .. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » .. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الاذن بنفى أبى ذر من الشام الى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضا فنفى منها الى قرية من أرباضها[3] حيث لا يسمع له دعاء

***

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول برجعة النبى الى الدنيا ووصاية على على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه[4] ، فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيّق عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل فكتب فى أمورهم الى الخليفة يقول : « انه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لايريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة . انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون[5] أحدا الا مع غيرهم .. »

ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالنفى والاقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هى التى ينبغى لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة[6] من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير ، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر

---

(١) عاقبة . (٢) المحتاجين . (٣) أي نواحيها أو ضواحيها . (٤) اجهده وأتعبه . (٥) نكى العدو : قتل وجرح . (٦) كثرة .

الفتنة والعصيان ..

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الاسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر[١] الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء[٢] بالنار »

***

وكانت قبائل البادية تنفس[٣] على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون اليهم نظرتهم الى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهي حالة كان أحجى[٤] بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا في اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة : « انما السواد بستان لقريش ! » ..

وظهر هذا السخط من اثرة قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين !.. انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » الى أن قال يشير الى خلافة أبي بكر: « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في امارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا . فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ » ..

---

(١) أي نوازع · (٢) الارض الشديدة الحرارة · (٣) نفس عليه بخير : حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة : لم يره أهلاله · (٤) أجدر ·

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه فى صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به فى معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافثين(١) بهذا الغيظ كانوا يثوبون الى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق فى دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين(٢). فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه فى الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين .

***

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين(٣) متبرمين لايرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين . فلما طولب عليٌّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : «..كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس !.. ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم..»

***

وكان مع عليٌّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة ، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون فى الحواضر والبوادي ، ولا يزالون كأنبياء بنى اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير فى اقامة أحكام الدين . لايرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها ، ولايستمعون الى أمر الا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنّة

---

(١) النفث : هو كالنفخ وأقل من التفل . (٢) مكرهين . (٣) مغتاظين.

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لايستجيزونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلّون[١] القرآن عن قبوله .. فاذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون الا ما أجازوه واستوجبوه ، لأنهم خرجوا فى الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون فى جماعة . وهم أقرب الناس فى ذلك العهد الى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير ، والاصغاء الى وحى الضمير قبل دعاء الأمير..

واجتمع مع علي فى الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعليّ : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب علياً باسم عثمان ، تمحلا[٢] لذرائع[٣] الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

***

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر[٤] بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع[٥] شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم نفسه ، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن

---

(١) يعظمون· (٢) تمحل له : احتال · (٣) جمع ذريعة وهي : الوسيلة·
(٤) شجر بينهم الامر : تنازعوا فيه · (٥) أي يتشقق ·

عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضجاع على الصـوف الأذربى [١] كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان »

***

روى المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضيـاع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضـا بمصر والـكوفة والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيـد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينـة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم »

***

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة علىّ من الدولة الاسلامية عنصرا من أقوى عناصر القلق والتبرم [٢] والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية .

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القـائمة وأعداء الثورة والاضـطراب السيـاسى أو الاجتمـاعى على

(١) منسوب الى أذربيجان . (٢) السام .

التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود فى مجتمع عليّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور فى الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علياً من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد

عرفوا مذهبه فى حساب الولاية ومذهبه فى حساب الخلافة . فلما كان واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا ابل الصدقة وقال لهم : انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناسا شكوه الى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

***

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب عليّ عليه ، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابى من اخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء ..

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه ..

ولم يكن فى وسع عليّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لايشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قلق متوفز[1] لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وكل أولئك كانوا فى حصة عليّ من الدولة الاسلامية ، ولم يكن لمعاوية فى حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له فى موضع كل

---

(١) متعجل .

واحدة منها دعامة تمكين وتأييد

وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف اليها

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التى اصطلحت على حصة عليّ من الدولة الاسلامية .. فقد أضيفت اليها علة أخرى ، بل أضيفت اليها أكثر العلل التى تبتلى بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها فى مواردها على غيرها ..

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو انفال أو تجارة . أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت فى طاعته وجنحت[1] الى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسواد من حصة عليّ ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسواد كثيرا لتعاقب الفتن والغارات عليها .. وحسبك من هــذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة ..

***

وينبغى أن تذكر ان الحيلة فى هذا التقسيم قليلة ، وان الحوادث هى التى اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم الى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل فى هــذه القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشــبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من عليّ بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها الى التغيير..

ان شكا اناس غلبة قريش ، فعليّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول فى كتاب من كتبه الى أخيــه : « ... ودع عنك قريشا وتركاضهم[2] فى الضلال وتحولهم فى الشقاق ، فان قريشا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رســول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصــلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

---

(١) مالت · (٢) أي ركضهم ·

الحفاظ والقراء والنساك فعليٌ كان امام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير ..

وان جاءت من ضيم[1] الفقراء فعليٌ فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعليٌ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعليٌ شريك له فى شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

***

كان عليٌ نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرا[2] قبل أن يرشحا له بارادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه !..

---

(١) ظلم . (٢) أي قهرا .

البيعـة

بويع لعلي بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية فى تاريخ الاسلام ، وهى بمقتـل الخليفة عثمان بن عفان فى شيخوخته الواهنة ،[1] بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيـلة لأحد فى اتقائه لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصـدقاء ، واذا بطل الشر الذى فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسـفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعـله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء مغبتها[2] بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الاولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى فى عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحـوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعيـة ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات ...

وتتعدد الأسباب التى أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر فى سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة فى الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد[3] والمتاع .

---

(١) ريح تأخذ في المنكبين ، أو في العضد ، أو في الاخذ عند الكبر .

(٢) عاقبتها . (٣) العيشة الواسعة الطيبة .

ولقد كتبت الأسفار[١] المطولات فى احصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المـآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المسـائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنّة ذريعة[٢] الى تأييد مذهب وانكار مذهب فى الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون فى الاتهام كما يبالغ الآخرون فى الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هـذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا اننا نجتزىء[٣] هنا بالاشارة الى التذمر الذى أثار الفتنة ، والالمام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطـأ والصواب ..

أهم هذه الأسباب ، انه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة ، وانه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال وانه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المـال ، وانه توسع فى بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وايجاع ..

ولم تنقض سـنوات على هـذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون[٤] من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة[٥] والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة[٦] ، واضافة الأوهام الى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء .

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة ، ان الناس تألبوا على

---

(١) الكتب . (٢) أي وسيلة . (٣) نكتفي . (٤) الفقراء المعدمون .
(٥) لاحاه ملاحاة : نازعه . (٦) التمادي في الخصومة .

الخليفة مرة .. فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه فى اعطائهم بعض الرفد(١) العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدءوا الى حين ..

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المتذمرين فى بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس .. وانك ان قتلته نكلت(٢) به من وراءه » فضربوه حتى غشى(٣) عليه .

وفى مرات أخرى ، كان الخليفة يصغى الى هـذه الشكايات ويندم على ما اجترحه(٤) أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان واخلافهم فى أعمالهم بمن يرضى المسلمين ، ويرضى الله ..

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويملى(٥) لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم ، فاذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم اجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسيء اليهم . فاذا توجه الوالى الجـديد الى مكانه ، اذا فى الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد اليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

حدث هـذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخـلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم — عنصر السوء فى هذه المأساة

(١) العطـاء والصلـة . (٢) أي جعلتـه عبـرة لغيـره (٣) أي اغمي . (٤) اكتسبه . (٥) يطيل ويمهل .

كلها — وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفى كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض[1] لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

***

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون .. لا هم فى حرب ، ولا هم فى سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف[2] بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله ..

وتوسط عليٌ بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة عليٍّ ... ومنهم من يسيء الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم فى انتظار المدد الذى طلبه من الأمصار ..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى ..

وتفاقمت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان .. لا يقنعون فى هذه الكرة[3] الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة[4]

وجاء فى رواية « شداد بن أوس » ان عليا رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتما بعمامة رسول الله متقلدا سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليٌّ .. وقال بعد تمهيد وجيز[5] : « .. لا أرى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : « أنشد الله رجلا رأى لله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ، ان يهريق فى

---

(١) أي ابطال . (٢) الخوض في أخبار الفتن . (٣) المرة . (٤) أي قهرا . (٥) أي قصير .

سيبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى » فأعاد عليٌّ القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن .. تقدم فصلِّ بالناس » فقال : « لا أصلّى بكم والامام محصور ، ولكنى أصلّى وحدي » ثم صلّى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة[1] من الصحابة فى حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيبوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .

***

وللافاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فانما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه علىٌّ من هذه الجريمة ، وما ينم[2] عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره .. وانما يعنينا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر فى هذه الجريمة ؟.. أكان فى مقدوره عمل صالح يعمله لانقاذ عثمان من هذا المصير ؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع فى جوابه الى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سال فى الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور[3] الذى لا رىٌّ فيه

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى — ولو بعض الغنى — عن الاسهاب فى السؤال والجواب ..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الرتب[4] ، أن علياً رضى الله عنه لم يكن

---

(١) جماعة . (٢) أي يدل . (٣) المملوء . (٤) لعلها الريب .

أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه

فقد كان معاوية واليا عزيزا ، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه فى الشدة اللازمة وان أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعليٍّ ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو آقمن[1] أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان فى وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهى آمن له من المدينة ، أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار فى العصيان ..

أما عليٌّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل فى تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان ناقدا لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب رعاياه .. ناصحا للخليفة باقصاء تلك البطانة[2] ، وتبديل السياسة التى تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعى فى الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار

ولم يكن فى العالم الاسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هـذا الحرج الشـديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الحظوة[3] والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصغاء الى الرأى والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين اليه .. لا ينجو من احدى جناياته التى كان

---

(١) أجدر . (٢) أي حاشيته . (٣) أي علو المنزلة والمكانة .

يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع فى روعه ان عليًا واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه ، وانه لا أمان له الا آن يوقع بهم ويعرض عنهم .. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه ..

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشـاور فى اصـلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن عليّ مدعوا ولا منظورا اليه بعين الثقة والمودة .. بل كان المدعوون الى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه .. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العـاص ، وهم فى جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابة ، وبرمت[1] بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « ان لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا اليّ أن أعزل عمـالى ، وأن أرجع عن جميـع ما يكرهون الى ما يحبون .. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » ..

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين آن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم ، وأنا ضامن لك ما قبلى »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات فى غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمهرهم فى المغازى[2] حتى يدلوا لك .. فلا تكون همة أحدهم الا نفسه ... »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهادا تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا آميرالمؤمنين ان الناس آهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

---

(١) أي ضاقت وسئمت . (٢) أي الحروب .

رأى رجل يشترى الرضا بالرشوة ، ويستبقى ما فى يديه منها

وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع فى ولاية يرجوها : « أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعدل .. فان أبيت ، فاعتزم أن تعتزل .. فان أبيت ، فاعتزم عزما وامض قدما » ..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقى حتى تفرق المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك .. ولكنى قد علمت ان سيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى .. فأقود اليك خيرا وأدفع عنك شرا ... » .

***

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عنـــد عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفى مقدمتهم عليّ واخوانه .. ثم تفرّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل الى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة عليّ فى تلك المعضلة العصيبة جد قليلة ، وكان الحول[1] الذى فى يديه أقل من الحيلة

الا انه مع هـــذا قد صـــنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ، معصوب[2] بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصـــة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون الخـــلافة عليه .. فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين فى الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التى يتهمون بها بطانة عثمان فى أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذى وجدوه فى طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد آن وعدهم خيرا وأجابهم الى

---

(١) الحول هنا : بمعنى القوة • (٢) أي محاط •

تولية العامل الذى يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن على لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذى جمعكم فى طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » ..

***

وكانت حيرة عليّ بين التقريب والإبعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة[1] المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذى حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله فى ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان الا أن يجعلنى جملا ناضحا بالغرب — أى الدلو — أقبل وأدبر .. بعث الىّ أن أخرج ، ثم بعث الىّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث الىّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما » ..

ثم بلغ السيل الزبى[2] ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب الى علىّ يذكر له ذلك ويقول : « ان أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره .. وزعموا أنهم لايرجعون دون دمى ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه

فان كنت مأكولا فكن خير آكل   والا فأدركنى ولما أمزق

فعاد عليّ ، وجهد فى انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه .. فكلهم يريد تغييرا يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئا من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه ..

وعد الخليفة وعده الأخير .. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال وأحاطت به بطانته كدأبها فى اثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن

(١) بمغادرة . (٢) جمع زبية ، والزبية : الرابية لا يعلوها ماء .

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظر من الرجال فى هذه الغاشية التى تضل فيها العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء عليّ والاعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هـذا الرأى بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لاقامة عليّ خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » ..

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار .. كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت[1] الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا .. ارجعوا الى منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا »

اذن بطلت الروية[2] ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد اذا هى بدأت أن يقف دون منتهاها .

***

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن عليّ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة .

واجتلدوا[3] فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أنتم فى حلّ من نصرتى » وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندى بسهم فقتله ، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى .. » وعزّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التى حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير

لو لم تقع الواقعة فى هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت فى لحظة غيرها لايدرى كيف تبدأ هى الأخرى .. فانما هى بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر

---

(١) قبحت . (٢) التفكر في الامر . (٣) أي تضاربوا بالسيوف .

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..

ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه علي جالس فى نحو عشرة من المصلين ، فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ من الرجل » فصاح به : « تبا[1] لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمدا بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ، وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل » .

***

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب الى الحيطان[2] ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا الى سعد بن أبى وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا فى أمرهم . ثم قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لايصلح لها الا علي . فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : «انا لله وانا اليه راجعون» ، ثم الزبير، ثم قال الزبير: « انما بايعت عليًا واللج[3] على عنقى والسلام ..»

وهذا الخبر على وجازته[4] قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير ، اللذان أعلنا الحرب على علي بعد ذلك .. فقد كانا يمهدان لها فى حياة

---

(١) التباب الخسران والهلاك • (٢) البساتين • (٣) السيف • (٤) أي قصره واختصاره •

عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها آلا يتولاها هاشمي ، وأن عليًا وشيك أن يذاد[١] عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة الى واحد من هذين .. أو الى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم[٢] والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير فى النجاح ..

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ، ولا رأى بنى هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبى طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلي ، وابن عباس .

***

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تنشد رجلها دون غيره ولا محيد[٣] لها عنه .. فان ترددت أياما ، فذاك هو التردد العارض الذى يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأى جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتحرجون فى الدين ، وتمرد له الفقراء المحرومون .. كانا يخوضان فى المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنَّة[٤] الناقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم .. فما هم بواجديه فى غير علي بن أبى طالب ، وقد قال بحق : « ان العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون فى الخلافة مقالته عن العامة فى انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأى العامة فى حكومة عثمان وبطانته ، وان أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق[٥] وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد

---

(١) أي يدافع ويرد . (٢) هي قبيلة أبي بكر . (٣) عدول . (٤) أي طريقة . (٥) الخفة والطيش .

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة علي رضى الله عنه .. فاذا هى فهمت على وجههــا ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصــادر .. واذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا ، وبحث البــاحثون عن العلل والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازين كلها مختلة منقوصة سواء فى تقــدير الرجال أو تقدير الأعمــال ، وجاز حينئــذ أن يرمى علي بالخطــأ .. ولا خطــأ عنده يصححه غيره فى موضعه ، وانما هو حكم الموقف الذى لا محيــد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصــومه فضــل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافا بغير تفكير ..

***

فلم تكن المسألة خلافا بين علي ومعاوية على شيء واحد ، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار ..

أو هى كانت صراعا بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى علي بن أبى طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر علي .. فيحكم فى مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم فى مكان علي ، بل موضع الحسم فيها مبادىء الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادىء الخلافة الدينية أو مبادىء الدولة الدنيوية ؟.. أتكون مبادىء الورع والزهادة أو مبادىء الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة[1] والأجناد والأعوان ؟

فلو أن عليًّا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى فى سياستها على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ[2] والاسراف لبقيت

---

(١) سراة كل شيء : أعلاه . (٢) الكبر ، وتبذخ : تكبر وعلا شرف .

المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معاوية الا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل ..

ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى فى سياستها على سنّة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انقاد له أحد من أشياعه ..

فالحسم حق الحسم هنا ، انما تغليب مبادىء الملك أو مبادىء الخلافة ولا حيلة لعلي ولا لمعاوية فى علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهد الطاقة ..

***

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا فى عهد عثمان : كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينيــة ونصف امارة دنيوية ..

فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق[1] صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائما حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين ، وليس لعلي أو معاوية على التخصيص

هذه هي العلة الكبرى التى تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة ..

وخليق[2] بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع فى زعمه وهو غافل عن معناه ..

خــذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليّ ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه فى حياته بعض ما دفع عليّ عنه . وقد كان عثمان كثيرا ما يقول : « ويلى من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم[3] دمى .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

---

(١) الفلق : الصبح · (٢) أي جدير · (٣) يطلب ·

على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول

وخذ لذلك مثلا حجة معاوية حين علل ثورته باتهام عليٍّ فى دم عثمان ، وعلل اتهامه لعليٍّ بتقصيره فى القود[1] من الثائرين .. وهم ألوف يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلى عثمان حين صار الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذى من أجله ثار واستباح القتال ؟ انه اتبع عليًّا فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد ، وقد ذكروه به وألحفوا[2] فى تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهى تبكى : « وا أبتاه » فلم تزده هذه الصيحة المثيرة الا اصرارا على الاغضاء والاعفاء . وقال لها يعزيها : « يا ابنة أخى .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرا من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين .. » .

***

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين .. ولكان عذر علي فى بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب عثمان ليسترضى الناس ، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك .. فتب الى الله تتب .. » ثم ترك عثمان فى المدينة بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله انى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان » .

فكل علة للثورة على خلافة علي ، فهى تعلل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التى طوت فيها جميع العلل ظاهرها

---

(١) القود : القصاص . (٢) ألحفوا : ألحوا .

وخافيها وصريحها ومكذوبها . وهى الخلاف بين مبادىء الخلافة الدينية ومبادىء الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان فى ظاهره فصلا بين رجلين ..

فلما بويع بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذانا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايذانا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام الاجتماعى الجديد

فأما انتهاء الملك فى بدايته ، فقد كان بعيدا — بل كان عسيرا جدا فى تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال ..

وأما انتهـاء الخـلافة فهو الذى كان ، وهو الذى كان منظورا أن يكون ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم علىّ على شىء من الأشياء التى أفضت الى هذه الخاتمة ، وهى محتومة ليس عنها محيد ..

اذ لم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنّة النبوة أكثر من جيل واحد ، تثوب[1] بعده الطبائع الى فطرتها[2] من نشأة جلال الخلافة النبوية ، وهى فى ابان النضال والحمية الدينيـة ، فتنسى المطـامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء الى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر[3] عن النهوض من قمة الى قمة.. فتركن آخر الأمر الى الأرض السواء حيث لاحافز ولا مستنهض ، الا مجاراة الطبيعة فى مجاريها التى لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هى حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماح مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقا بغير عنان ..

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب الى هـذا المصـير فقال : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينيه صلوات الله عليه

(١) ترجع . (٢) أي طبيعتها . (٣) تفتر : تضعف .

واتبع عليٌّ من اليوم الأول فى خلافته أحسن السياسات التى كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته فى صدق الرآى وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المـآزق التى ساقته الحوادث اليها

فمن اللحظة الأولى ، أخذ فى تجنيد قوى الخلافة الدينية التى لا قوة له بغيرها ..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة[١] ، وتمرغوا بالدنيـا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسـلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

***

ورد القطـائع[٢] التى وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة

ورجع الى خطـة أبى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غواياتها وابعادا لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل تبقيان معى لآنس بكما » وسأل ابن عباس : «ماترى ؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : «ويحك .. ان العراقين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبى المنفعة الدنيوية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب آنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده . وكانت تخالف

---

(١) الخطر : ضـد الاباحة ، والشيء المحظـور : المحـرم ٠ (٢) أرض الخراج ٠

عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشىء ، وان كان خليفة وملكا فهى خطة عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد[1] كأقرب ما يتاح له السداد

***

وعلم ان قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قريشا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا فى رفده ، أو كانوا آمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة[2] » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء ..

ولم تمض أيام معدودة على مبـايعة الخليفة الجـديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أوعليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفـاع بالولاية والأموال العـامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه ..

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلا — أى ماضيا — أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا[3] من البلدان لأمر قد

(١) التوفيق والصواب • (٢) استأثر بالشىء : استبدبه ، والاسم الاثرة • (٣) تجمعوا من كل جهة •

جم[١]. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح .. فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى علي فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »

فلما بويع عليٌّ فى المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبى عليه السلام فى مسألة الافك التى قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سُمِّيت بهذا الاسم لاحتدام[٢] القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر عليٌّ ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التى يوشك أن يلقاها عليٌّ فى حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة فى جيش من المتمردين والمتذمرين .. فانهم يستحمسون فى عقيدتهم ، وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى فى اللدد[٣] واعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان عليٌّ يميل — كدأبه — الى مفاتحة الخارجين عليه فى المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم فى عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط فى الصلح دون الغلبة التى لا هوادة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة[٤] الحرب ، قبل أن يفرغ عليٌّ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

(١) كثر · (٢) أي اشتداد · (٣) شدة الخصومة · (٤) الجذوة : الجمرة

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التى أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين فى جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم[1] عليه حتى منى بالعثرة التى لا تقال ..

وكان ذلك فى وقعة صفين ..

فانه نظر بعد غلبته فى العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف فى طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه الى خطته التى جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع .. فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفى مثل واحد منها ، ما يغنى عن كثير ..

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة..

« سلام عليك .. أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسمّوه اماما كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان آبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وان طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان آحب الأمور الىّ قبولك العافية ، وقد أكثرت فى قتـــلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون .. ثم حاكمت القوم الى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها — يعنى الخلافة — فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء[2] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى وقـــد بعثت اليك والى من قبـــلك جرير بن

---

(١) تفاقم الامر : عظم · (٢) أطلق معاوية وأبوه من الاسر يوـم فتح مكة ·

عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة .. فبايعه ، ولا قوة الا بالله »
فرد عليه معاوية بما يلى :

« سـلام عليك .. أما بعد ، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان ، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحـكام على النـاس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك فلم أبايعك أنا . فأما فضـلك فى الاسـلام وقرابتك من رسـول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

***

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخـلاف واحدا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح ، لا ينتهى الخلاف باغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لايكفى ، لأن عليًّا نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ، وبراءة عليٍّ من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى والنظر فى البيعة من جديد ..

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم الى أهل الشـام ، وهم الحكام على النـاس .. لأنهم يحكمون لمعـاوية ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول[1] فى الصدور

وزحف عليٌّ من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء .. فنحاه[2] عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتـال ،

---

(١) يدور ويتحرك • (٢) نحاه : أي أبعده •

فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فزعة .. وتصاولوا فى وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت[1] الهزيمة بجيش معاوية وقيل انه همّ بالفرار .. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، واذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح .. فان عليّا نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعا على القتال أو القاء السلاح ، وان معاوية لفى غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه .. فله منهم سيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيهات !

***

ولو كانت آفة الطاعة فى جيش عليٍّ ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين .. لكان فى ذلك وحده ما يكفى لافساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ لا يستغنى القائد فى ميدان الحرب ، ولا فى ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارىء والمناسبات .. فاذا كان فى كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة فى كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيبا بعد ذلك ، أن ينهزم فى ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن — وان قصرت — أمام جيش يفوقه فى العدد ويرجع فى أمره الى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها فى اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة .. بل كان فى الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره .. فان لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذى لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عامدون — وغير

(١) حاقت : أي نزلت .

عامدين — شر ما يعمله الخائن الخبيث الذى يتحين الفرص للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان فى أحرج الأوقات

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادرا على زجرهم والتنكيل بهم .. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيّنة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم[١] أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته[٢] من التقلب والغدر بأصحابه ..

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبى عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه أياما ، ويئس من الغلبة فاستسلم .. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبى بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين علىّ ومعاوية ، كان هو من حزب علي يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف عليّ رضى الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء عليًا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟.. ولّنى الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد الى المسالمة ، بعد أن وضح النصر فى ليلة الهرير ، فخطب فى قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا ان توافقنا غدا انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى[٣]

(١) أي أجدرهم · (٢) الشيمة : الخلق · (٣) جمع ذرية ، وذرية الرجل : أولاده ·

غدا اذا فنينا » ..

ثم ذهب الى عليّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : «ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن .. فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » ..

ولقى معاوية فسأله : « يامعاوية .. لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ »

قال : « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل فى كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه .. ثم نتبع ما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى علىّ ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن عليّ ، وعليّ لا يرضاه ..

***

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا[1] على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه[2] بالقول السيىء منذرين متوعدين :

« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

فقبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضينا بأبى موسى الأشعرى »

قال علي : « انه ليس لى بثقة .. قد فارقنى وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك »

قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر .. »

---

(١) أي تجرأوا وتطاولوا . (٢) أي يواجهوه .

قال : « فانى أجعل الأشتر »

قال الأشعث — وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل — : « وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟.. أو قال : وهل نحن الا فى حكم الأشتر ! » ..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم الا أبا موسى ؟ »

قالوا : « نعم ! »

قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! » .

***

فهذا رجل من الزعماء المطاعين فى جيش علي ، لم يدع من وسعه شيئا لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذى يختاره نصيرا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه . ولا طائل فى البحث عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع فى الملك بعد فشل علي أم النقمة على الأشتر النخعى فى مكانته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فانما النية الخبيثة ظاهرة وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذى هو فيه

قال علي يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبنى جبل لتهافت[1] »

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي[2] الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء .. ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول .. أى دار بعد داركم تمنعون ؟.. ومع أى امام بعدى تقاتلون ؟.. المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل[3] . أصبحت

(١) تساقط · (٢) وهي الحائط : اذا ضعف وهم بالسقوط ·

(٣) الافوق : هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والناصل : العاري من النصل ·

والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟.. ما دواؤكم ؟.. ما طبكم ؟.. القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟.. وغفلة من غير ورع ؟.. وطمعا فى غير حق ؟.. »

***

وهى صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها فى سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذى أذعن(١) له وهو كاره ، حتى فوجىء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ، وهو عندهم كفر بواح(٢) ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك !

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فان أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأى الى عمرو ابن العاص فى اقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه

الا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم انها الجولة الأخيرة فى الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنّة الدهاة من أمثاله ، اذ يتنسمون(٣) الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بجهبها قبل أوانها .. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الابطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك بخبر الرجلين .. »

(١) خضع . (٢) أي ظاهر مكشوف . (٣) يتشممون .

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلو[1] ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟.. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟.. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا » ..

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحس المغيرة حزره[2] نقط الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل فى نفسه شىء من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد[3] الأشعرى ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

(١) أختبر وأعرف • (٢) أي ظنه وتخمينه • (٣) قلب •

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها[1] من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وانى قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا » .

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هـذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فانه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. »

فابتسم عمرو، وهو يقول : « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا..»

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

واتنهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة

وبان ان اجتماع الحكمين لم يفض الى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى[2] واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد أجمعوا وأبرموا[3] فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلي يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فآثر أن يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويجيبه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمتهم . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء

---

(١) الشعث : انتشار الامر . (٢) زاد . (٣) أبرم الشيء : أحكمه .

قال علي : « ما الذى نقمتم علي بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..

قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم »

قال علي : « يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهـدى أم رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »

قال على : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم[1] » آكان الله يشك انهم هم الكاذبون ..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك »

قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه[2] » ..

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق فى جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال علي : « ويحك يا ابن الكواء .. انى انما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا » ..

قال ابن الكواء : « فان أبا موسى كان كافرا »

قال علي : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل حين حكم »

قال علي : « أفلا ترى انى بعثته مسلما فكفر فى قولك بعد أن بعثته .. أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله [3] فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ »

(١) الآية : ٦١ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٤٩ من سورة القصص.

(٣) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام اذ أوفد نهارا الرجال ليهدي قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرا بدينه .

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبوموسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ »

فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بندٌ[1] لعلي فى مجال نقاش ، فكفّوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق عليٌ فى حجته وقصده ، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون فى المضى مع العنـــاد لذة يستمرئونهـــا من الحق والمعرفة .. فمردوا[2] على الشقاق ، وأصروا على تكفير علي وأصحابه ، وأن يعاملوهم فى الحرب والسلم معاملة الكفار ..

واستبقى علي بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع فى الساحة راية ضم اليها ألفى رجل ونادى : « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن »

ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم علي وأصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر[3] صدره . فما هى الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتـــال ، فأمر بهم عليٌ فحملوا الى عشائرهم لينظروا من فيه رمق[4] فيدركوه بعلاج

وأراد المسير الى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له فى كل فرصة سانحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفدت نبالنا ، وكلت[5] سيوفنا ، ونصلت[6] أسنة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا » .

***

وتسلل الجنـــد من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ،

---

(١) المثل والنظير · (٢) مرد على كذا :مرن واستمر · (٣) الضغن ، والعداوة ، والتوقد من الغيظ · (٤) بقية الروح · (٥) وصارت عاجزة عن القطع · (٦) وخرجت ·

وأيقن علي ان القوم مارقون[1] من يده ، ولا طاعة له عليهم اذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا عليًا ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من علىّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو فى انفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقى علىّ فى أرباض[2] الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

وبقيت فى كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التى يخيل اليك وأنت تتعقبها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء[3] علي بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص .

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من فاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة فى رأيهم — وهم : علي بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم علي بن أبى طالب »
وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان ؟
وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »
وان ضغينة الثأر لحافز أى حافز ..

---

(١) خرج من الجانب الآخر ، ومنه سميت الخوارج مارقة ، لقوله — صلى الله عليه وسلم — : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .
(٢) ما حولها . (٣) ليعود ويرجع .

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير ..

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام ..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم[1] بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامىء لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم .

فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة .. ولكنه اذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه فى يدى غيره ، وليس فى يديه .

***

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة[2] القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا الا أن يشفى لوعتها . قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة[3] ، وقتل عليّ بن أبى طالب »

قال : « أما قتل عليّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى .. »

قالت : « بل ألتمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »

وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة

---

(١) أي تعبىء وتقوى . (٢) يقال : فلان شديد الشكيمة .. اذا كان شديد النفس أنفا أبيا . (٣) القينة : الأمة .

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها الا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه » ..

وأما علي ، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة[1] ويقول لهم : « يابنى عبد المطلب .. لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. »

« أنظر ياحسن ! ان أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .. ولا تمثل بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور .

***

وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر فى كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه .

فمهما يقل القائلون ان عليًا انما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدا ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروسا ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسا ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة .

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ ، ترجع بنا فى آخر الأمر الى علل المصادفات التى لاتقبل التعليل .

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها ..

وذلك هو النسيج الانسانى النابض الذى يتخلل حياة عليّ فى لحمتها

---

(١) مثل به : نكل به ، والاسم منه « مثلة » .

وسداها [1]، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض أحكام الواقع الملموس فى سيرة الامام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تنسجها القرائح [2] لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتيل الموصى بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور المواز [3] واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة ..

***

وهذه مزية عليٍّ بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل ..

تلك حياة حى .. وذلك مصرع شهيد ..

(١) السدى : ضد اللحمة · (٢) يقال : لفلان قريحة جيدة ، ويراد به استنباط العلم بجودة الطبع · (٣) أي المائج الهائج ·

سياسته

تسرى فى صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلّمة ، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها ، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها الى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لغت فشــوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد[1] بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليًا بن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هــذا الرأى فى عصر علىّ بين أصحابه ، كما شــاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هــذه المخالفة فى معظم مساعيه ، فكان من الطبيعى أن يقال: انه منى بالفشل لأنه عمل بغيرما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى الى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، فى عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان فى وسع علىّ أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير

---

(١) الامد : الغاية والمنتهى .

ما صنع فما هى العاقبة ؟.. وهل من المحقق انه كان يفضى بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التى صار اليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هــذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ فى رأيه ورأى مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة ..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والانجاز وخرج من حيز النصح والمشورة

وهــذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها نقــدة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطىء ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان فى غمرة[1] العواصف والأمواج ..

***

فالمآخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

١ ــ عزل معاوية

٢ ــ معاملة طلحة والزبير

٣ ــ عزل قيس بن سعد من ولاية مصر

٤ ــ تسليم قتلة عثمان

٥ ــ قبول التحكيم

٦ ــ قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقــد أقرب الى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه ..

قيل فى مســألة معاوية ان عليًا رضى الله عنه خالف فيها راى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمى ، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة[2]

(١) شدة · (٢) احتنك الشيء : فهمه وأحكمه ، ورجل محنك : أحكمته التجارب ·

وحسن التدبير ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وان الضياع اليوم تضيع به ما فى غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال :« لا أداهن[١] فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى »

قال المغيرة : « فان كنت أبيت علي فانزع[٢] من شئت واترك معاوية ، فان فى معاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يستمع له ولك حجة فى اثباته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال علي : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : « انه نصحك » ..

قال علي : « ولم نصحنى ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق»..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الامام : « تيسر »

قال زياد : « لأى شيء ؟ »

قال : « تغزو الشام »

فقال زياد : « الاناة[٣] والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم[٤]

---

(١) أنافق . (٢) أنزع : أي أعزل . (٣) أي التمهل والروية .
(٤) المنسم : خف البعير .

فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكى وصارما [١] وأنفا حميا تجتنبك المظالم »

فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فأجابهم : « هو السيف يا قوم ! » ..

***

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الامام وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟ ..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا : هل كان الامام مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله بالشام ؟ ..

وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو أنه استطيع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله لسببين : أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيرا ما اعتذر عثمان من اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان علي لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فاذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان الى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا [٢] من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. هل هجموا على أهل البصرة

---

(١) الصارم : السيف القاطع ٠ (٢) أشفق منه : جذره ٠

وهم مأمورون بالهـدنة والاناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما وراءه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها[1] له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشـترى الأنصـار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسـه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة فى حينها .. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته اياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الارجاء[2] ..

واذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان علي مستفيدا من اقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على علي بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه ان صواب الامام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم نؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصـواب عنده وعندهم سواء ..

---

(١) يدعمها : يقويها . (٢) التأخير .

والتقدير فى مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأى الذى عمل به الامام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضمانا من رأيه الذى ارتضاه ..

فالرأى الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الامام لأن « العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامة الامام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويثيران بها أنصاره عليه .

***

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح فى الوقيعة بينهما الا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة[١] السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليساوم معاوية ، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة الى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة .

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا[٢] الغارة عليه ..

---

(١) أي الفرصة • (٢) يقال : شن عليهم الغارة : اذا فرقها عليهم من كل وجه •

والواقع ان الامام قد استراب[١] بما نوياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة[٢] ! »

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر ، وتسلل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغيرسلطان قاهر، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشىء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين فى عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء[٣] أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم .

وعلى هــذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة الى البصرة بيائس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » فى مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التى سلكها الامام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التى قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهى غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيسا بن ســعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفؤا لمعاوية وعمرو بن العاص فى الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حزبه والمؤتمرين فى السر بأمره ..

---

(١) أي تشكك . (٢) الغدر : ترك الوفاء ، والمراد : الخيانة . (٣) أي جديرين .

وكان أصحاب عليّ يحرضـــونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيـــه حتى اجتمعت الشـــبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشـــهم ، فحســـبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين الى مصر من دولة عليّ فى الحجاز ..

ولما بايع المصريون عليًّا على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعين[1] حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .

***

ثم أغراه معـــاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك انى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام .. » .

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم » .

فتعاظم شـــك الامام وأصحابه ، وكثر المشـــيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأى الصواب ، وان ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمدا بن أبى بكر والى مصر الجديد ، وجرءوا

(١) وادعين : ساكنين .

عليه من كان يصانعه ويواليه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله(١) فى الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها فى حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق اليها الساسة .. فانما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ(٢) الأشتر الى مصر ليعيدها الى طاعته فمات فى الطريق ..

***

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة ، منها انه مات غيلة وان معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنودا من العسل » ..

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته فى اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة(٣) عند من يحمدونها .

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقريب قيس من جوار عليّ ، وقال : « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علىّ من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن ، والذى حذره عليّ كان ..

واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب ..

---

(١) يعدله : يساويه . (٢) أي بعث وأرسل . (٣) أي الاغتيال .

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلا بين الامام وخصومه ، فاذا هى أقصرها جدلا من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع ان القود لا يكون الا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لايستطاع قبل أن تثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه — وهم ولاة الدم كما يقولون — يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة الى جميع الأمصار

***

وقد تحدث الامام مرة فى أمر القود (١) من قتلة عثمان ، فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع (٢) القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا .. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

---

(١) القصاص . (٢) ترجع .

الشريعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لايجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبـوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة علىّ وهى خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تمّ الأمر لعلىّ» تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهى تقول : « قتـل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه » ..

فقيل لها : « ولم ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت .. ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر »

فقالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب

والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل .

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم انهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة[1] عنه ..

ولكنه قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فزعة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتـله كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبىموسى الأشعرى ، على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا

---

(١) مندوحة ، ومنتدح : أي سعة ·

عليه ، كما فرض عليه التحكيم فى لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو ان العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعرى أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليا فى الخلافة ، وقصارى[١] ما هنالك ان الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهم بعضهم ان الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح[٢] به الى حزب الامام ، بعد مساومته التى ساومها فى حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات[٣] يعز عليهم اخفاقهم كما يعز عليه اخفاقه .

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ؟.. لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف — قال قائل منهم : انما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيرا مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس فى أيدى المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذى أذعن[٤] له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره فى عقباه .

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه..

---

(١) أي غاية . (٢) أي الميل . (٣) الحاجة . (٤) خضع .

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للامام وآمن لسربه[1] وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثرة ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال ان رجلا كعلى بن أبى طالب ، يترك وادعا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الاسلامية فى عصره ..

ان تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو علم منصوب يفئ[2] اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل: ان ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ[3] الناس به ورجعتهم اليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون[4] فى المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلي يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم اياى فلتة[5] وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم لله ، وأنتم تريدوننى لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على عليٍّ ، فيقول : « انه كان

---

(١) لنفسه . (٢) يرجع . (٣) لجأ اليه . (٤) الفضل والمزية .
(٥) أي فجأة بدون تردد وتدبر .

رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسرّى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان فى أخبث جنـد وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت .. »

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخـلافة : « انه لايصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهى ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع فى موضع عليّ ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها

فالبلاء كله انما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر عليّ يعرف وسر معاوية يكتم .. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره ، وعليًا لا يطاع الا اذا سئل عن نيّته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينفذ من رويته الا الذى ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة[١] ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاه ، لـما طمع فى حظ أوفق من حظ علىّ فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشـوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه[٢] على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبنى أمية مرودا[٣] يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليًا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة[٤] بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه ..

فقوام[٥] الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز

(١) أمر حازب وحزيب : أي شديد . (٢) القرن : الكفء . (٣) المرود : الميل . (٤) كثيرة . (٥) قوام الامر : نظامه وعماده .

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقا[١] بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن عليًّا أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد[٢] الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين[٣] بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا مجربا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة[٤] للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلفه[٥] كالثور عاقصا — أى لاويا — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة[٦] فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبث عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال: انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضرّوا واذا تفرقوا نفعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنهم فانتفع بهم الناس ..

---

(١) أي مانعا وحائلا • (٢) الغاية • (٣) أي المعروفين • (٤) أي مرجعا•
(٥) أي تجده • (٦) أسلس طبيعة •

فهذا قسـط من الرأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصـدى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلفيق[1] أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية ..

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

***

ونعود بعد هذا ، فنقول: انه لم يخسر كثيرا مما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لابد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه[2] ونياته ومعاونة أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهـد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه

فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والملك يطلبه ..

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى ، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاه الدنيا ، الذى تطلع اليه من نشأته الأولى فى بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرفاء[3] ..

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون على رأس فريق الخلافة ..

---

(١) لفق الثوب : اذا ضم شقة الى شقة وخاطهما · (٢) جمع خليقة ، وهي : الطبيعة · (٣) أي الالتئام ·

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبادىء والظلامات الراغبين فى التبديل والاصلاح ، وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليّ الى ما صارت اليه ، كائنا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنا ما كان طريقه الذى ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه

***

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك فى صراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر فى هذا الصراع ، وقد ظهرت فى مآزق شتى من أحرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا فى تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت[1] العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..

فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الامام فى كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت فى مواقف مكربة تضيق بها الصدور ..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد فى هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت فى غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر فى معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه

ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع[2] فى هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الامام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد الى نفسه ، ثم ولى على الفور من

---

(١) أشب الشجر وتأشب : التف ٠ (٢) أي تفيد وتؤثر ٠

يقوم مقامه فى رئاسة قوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟.. أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد ..

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهى مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هـذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هـذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهـدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما الى الكسب وإما الى الخسارة .. وانما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة ا.انه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..

على اننا ـ وقد سجلنا هذه الملاحظة ـ نفرض انه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد[1] اليها ، فنفعته فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله

فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملنـاه ؟.. يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخـلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجنـد وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف[2] والجهاد ؟

---

(١) أي تصد · (٢) خشونة العيش ·

واذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب اذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنّة النبوة ، أفيستقيم له هــذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الامام هى السياسة التي كانت مقيضة[١] له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد[٢] عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم[٣] الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .

***

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الامام ، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحس بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذى استناموا اليه ..

وأحس بها الفــاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحس بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين[٤] ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

---

(١) متاحة ٠ (٢) عدول ٠ (٣) أي عادتهم ٠ (٤) أي متقاتلين ٠

وكتب لعلىّ بعــد ذلك أن يتلقى الدولة الاســلامية بين هــذين العسكرين ، فلا فى مقــدوره أن يجمعهما الى عسكر واحد ، ولا فى مقــدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا آن يختار عسكر الخــلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وانه لانصــاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك النقائض والأعباء ..

***

وقد نقدت سياسة عليّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبى ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ..

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع الى العوائق التى حالت بينه وبين الخــلافة قبل وصــولها اليه ، لنعلم منها العــائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافا أصابه فى تخطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قرابته من النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقــاده ، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعى فى النفس الانسانية كيفما كان حظها من الزهــد والقناعة ، لأن تخطيه ــ مع هــذه المزية التى ترشحه للبيعة ــ يشبه أن يكون قدحا[1] فى مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة[2] على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

---

(١) أي عيبا . (٢) مالأه على كذا ممالأة : ساعده .

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان علىّ هى العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش ، وفى القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضي فى سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبى سفيان صنوا[1] للكعبة فى أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه أن تئول[2] الخلافة الى علىّ بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيارغيره منأنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

***

ولم تكن الحكمة النبوية هى وحدها التى تأبى اثارة العصبيات وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما فى وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق[3] . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يفطن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

(١) أي مماثلا . (٢) آل : رجع . (٣) أي الاصول .

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبى عليه السلام وليس له عقب[١] من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين أو ضرورات القضاء ، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم[٢] ، وحبطت[٣] كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الالهية ، مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين علي وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة » ..

***

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشا كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر .. عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الاسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخلاف[٤] من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى

---

(١) ولد . (٢) المحكم . (٣) بطلت . (٤) الاعقاب .

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لوكانت الأسلاف آحياء لقصرت عن فعله»

وقد علم الامام هــذا من قريش ، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقريش ؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن[١] الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها »

***

ولو أن قريشا وادعته فى سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة ..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها[٢] ، فتلك هى العقبة التى لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذى قدمناه ، فلا نرى شيئا أقرب الى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم[٣] الى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام ، لأنهم أقرب النــاس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور فى بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار الى مشيخة الاسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيــار الخليفــة من بينهــا على السنّة التى لم تتغــير قط فى تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الامام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تئول اليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان

---

(١) لأشقن. (٢) ذحولها : حقدها وعداوتها وثأرها. (٣) أي أشخاصهم.

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا فى جوار النبى بضع عشرة سنة قبل ظهور علىّ فى الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبى ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذى قام بين علىّ وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، فى رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

***

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هـذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم»

واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفـاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له فى المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفى مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية وبأس الرؤساء من الوفر[1] والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنّه منهم الى أمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة[2] بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقـادم العهد كما قال ابن أبى الحديد ..

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها ، دخلت فى الأمر دخلة البواعث

---

(١) المراد بالوفر هنا : كثرة المال . (٢) الجفاء : نقيض الصلة .

الشخصية التى لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الانسان فى زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل: انه أنس مع الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلا موقوتا الى عليّ وانحرافا موقوتا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط .

***

ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام، ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هى التى خذلت عليًا وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا . . .

بل جاءت البيعة فى المدينة ، يوم خفت[1] فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامى قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينا حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم فى خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية ..

---

(١) أي ضعف .

فأى القسمين ، كان قسم عليّ كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبى الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع الى علة غير سياسة عليّ لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان ..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنّه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس(١) والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنانا الى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى(٢) عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وآخرا بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف ارادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع ان هذه السياسة ـ سياسة المنافع الدنيوية ـ لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبى ، ولا بعد مقتل عثمان ..

---

(١) أي التخوف . (٢) أكثر فائدة ونفعا .

فبعد النبى عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى الأيدى وأنشأت فى المجتمع الاسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل[1] بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحا ماضيا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية فى سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب[2] لها أهبته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه فى بلاد وادعة بين جند مطيع

ولو توافرت لعليّ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعا فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا[3] من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

وأغلب الظن ان عليًّا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة الى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت فى اليمن — وقد عهدت حكمه قديما — تلك الطائفة السبئية التى غلت[4] فى حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتثرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التى ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها[5] بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت فى يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت فى يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا فى بقعة من

(١) أي قاطعا · (٢) أعد · (٣) أي رجعوا · (٤) من المغالاة ، أي تجاوزت الحد · (٥) شطء الزرع والنبات : فراخه ، وقال الاخنس : طرفه ·

البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن — كما أسلفنا — ان علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التى ناصبته العداء ، وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان عليًا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..

وليست هى أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم ..

وتفضى بنا هـذه التقديرات جميعا الى نتيجة واضحة نلخصـها فى كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال فى وصف تلك السياسة التى كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..

فسياسة علىّ لم تورطه فى غلطات كان يسـهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى ..

وهى كذلك لم تبلغه مآرب مستعصيـة ، كان يعز عليه بلوغهـا فى موضعه الذى وضع فيه وعلى مجراه الذى جرى عليه ..

فليست هى علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هى لا تستدعى الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعى النجاح من حيث لم يسلس[1] له قياد ..

ورأينا فى سياسته فهما وعلما ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التى هى الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيـد[2] الملك واستغنائه عن المساومة والاسفاف ..

ولكنه لم يأت فى أوان خلافة ولا فى أوان ملك موطد ، فحمـل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغى أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد ..

---

(١) أي يسهل · (٢) أي قوي راسخ ·

حكومتـــه

كانت الدولة الاسـلامية الناشئة على شـفا[1] الخطر فى ابان الفتنـة الداخلية بين علىّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطـر الذى يهـددها .. وتتلخص عوامل الأمان فى وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن[2] اليه الناس مؤمنين بدوام ظنه[3] وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صح فى الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح فى كثير من الطوارق التاريخية الـكبرى ، وهى انهـا لن تكون شرا محضا فى جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت فى روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشق عليهم جهده ، وهم فى تلك الحالة من الجهد والاعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناة ، وألهى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخـلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هـذا الانتظار الخادع جانبا من جوانب الخير فى الفتنة الاسلامية التى فاضت يومئذ بالشرور

---

(١) أي حافة . (٢) أي اطمأن . (٣) يستعمل الظن بمعنى العلم .

وعلى هــذا انقضت أيام عليّ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياســة الداخليــة كما نسميها فى العصر الحديث ..

***

ومن اليسير أن نعرف سياســة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة فى التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن تتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق عليّ هى طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هى أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء ..

فالناس فى الحقوق سواء ..

لا محاباة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمــد الى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنّة المســاواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان فى العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحســموا[١] أحدا عن حاجتــه ولا

(١) تحسموا : تمنعوا ٠

تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم»

ومن وصاياه فى تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج[1] بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلنى اليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه الى وليه ؟.. فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أوفضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به.. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوءن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. »

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز[2] أهلها ، وانما يعوز أهلها اسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ..»

أما دستوره فى الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشتر النخعى يقول له : « انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ[3] منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام ، فانهم

(١) لا تخدج بالتحية : أي لا تلق التحية ناقصة · (٢) اي حاجة وفقر (٣) تمر

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اسرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ[١] عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا[٢] أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون[٣] من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول فى وصية ولاته :

« وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم[٤] عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك » .

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره[٥] بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم .. وليس عليه مثل آصارهم[٦] وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله فى عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان عليا أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على

---

(١) أتم . (٢) الثلمة : الخلل . (٣) أي الجواسيس . (٤) أبغضهم .
(٥) غلبة الحرص . (٦) أي ذنوبهم .

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصــة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر[1] عن فارق بعيــد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمــد على غيرهم بعد آن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما فى أيديهم أعسر حســاب ، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان[2].. وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بثمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجا فى الدين ..

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان فى اختصاصه اياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة[3]

(١) ي تفضح وتكشف · (٢) جمع جفنة وهي : القصعة · (٣) أي سعة·

عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى الى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمورعلىعهد الامام ولم تنقسم فىمسألة الولاة أومسألة الاستغلال وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد ازرها[1] بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..

وقد كانت القبيلة من أنصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة ..

وكان أنصار الامام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب على التعميم ..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علىّ أو خلافته ، هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتوخاة[2] ، وبالغا ما بلغ نصيبها من السداد والصواب ..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الانسانى فى كل شأن من شئون الحكومة ، قضى به علىّ فى عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..

فالروح الانسانى هو قوام[3] الحكومة الامامية ، كما ينبغى أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهى طاقة لها ما لها من حدود ..

جىء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها ، فاستفتى الامام .. فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما فى بطنها » .

---

(١) الأزر : القوة · (٢) أي المقصودة · (٣) قوام الامر : نظامه وعماده·

وانتزع امرأة من أيدى الموكلين باقامة الحد عليهـا .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدرى » قال : « وأنا لا أدرى » فترك رجمها للشك فى عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرّت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس فى رجمها ، فقال عليّ : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلّ سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصاص وتفسير الشريعة ..

الا انه قد حاد[١] عن هذه السنّة[٢] فى أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل: انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الاله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التى لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس فى اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيع الامام فى هـذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة فى الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألّهوه .. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا فى الأرض أو يبدءوا بالعدوان على برىء . وفى هذا الانصاف بين مؤلّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة فى العقاب .

(١) مال وعدل . (٢) أي الطريقة .

وكان الامام يذكر أبدا فى حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليًا عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : ياغوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله ، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا(١) ولا مقطوعا ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى » فقال : « ابدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأتاه بالبينة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط فى حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص

ويقال الكثير عن مناهج الامام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الاجمال عن التوسع فى التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضي الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل(٢) الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعليّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

---

(١) أي معيبا . (٢) الابن والابنة .

النبي والامام والصحابة

أحاديث النبى عليه السلام فى فضـل عليّ ومحبته متواترة فى كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذى رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال : « رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربيـة ، وفى الخيمـة علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، وليّ لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقى الجد ردىء الولادة »

ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذى روته السـيدة عائشة حيث سئلت : « أىّ الناس أحب الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواما قواما »[1].

وقد روى حديث فى هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها »

ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هى التى تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبى من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية فى فضل عليّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيّه ، وهى تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون فى تأويل هذه الأحاديث ، وفى أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبا

---

(١) أي كثير الصيام والصلاة .

على مذهب . . اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزيز[1] أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فمهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان عليًّا كان من أحب النـاس الى النبى ، ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم انسانا ، كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنـده ، وكان بديله فى الفراش ليـلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشىء فى سنّه ؟ ..

حب النبى لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لايكتفى بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبّبه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليًّا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى[2] منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ماعندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من علىّ ؟.. ما تريدون

(١) أي تقوية • (٢) اختار •

من عليّ ؟.. ما تريدون من عليّ ؟.. عليّ منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى : «أتبغض عليًّا ؟» قال : «نعم !» قال : « لا تبغضه ، فان له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها .. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبا »

***

وبعث رسول الله علياً الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى.. فشكوه الى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : « يارسول الله .. لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق .. » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم : « أيها الناس .. لا تشكوا عليًّا ، فوالله انه لجيش فى ذات الله » ..

ويلوح(١) لنا أن النبى عليه السلام كان يحب عليًّا ويحببه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية(٢) وحبا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى(٣) معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة ..

فالتزم فى التمهيد لعليّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله فى سرية الى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى

---

(١) يظهر . (٢) أي غير مكرهين . (٣) أبعد .

ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينــة حين خرج المسلمون الى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله[١] الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم فى شأنه الى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح[٢] الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتتبىء عنهــا الحوادث بين النبى وابن عمه العظيم ..

***

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هى وحدها العلاقة الممكنة المــأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان

فهو يحبه ويمهد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه النــاس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم اليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..

وليس بالممكن أنّ يحبهما له ، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..

واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم ان أرادوه لايستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..

وانما الممكن والمعقول هو الذى كان ، وهو الحب والايثار ، والتمهيد لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان

أما العلاقة بين على وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهى

(١) يسلمه ويتركه ٠ (٢) تتاح وتهيأ ٠

علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يشوب الى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء .. بل ليس فى أخبـاره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ، وان دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليًّا كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وانه لم يزل مدفوعا عن حقه هـذا منذ انتقل النبى عليه السلام الى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصـار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولمـا احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا (١) عليهم .. فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصـديق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهـد الصـديق ، فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن ارث الأنبياء ، ونصه فى روايته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة .. انما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها عليٌّ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر .. وقيل ان عليًّا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد وفاتها . ثم أرسل الى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا »

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم ٠

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته[١] التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمجمة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه..!

***

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفى ذلك يقول من خطـاب الى معاوية : « ذكرت ابطائى عن الخلفاء وحسدى اياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه فى حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطىء جدا من يتخذ فتواه فى مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه فى أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتى فى هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريرة[٢] عمله .. لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه

---

(١) آي مناظراته . (٢) الجريرة : الذنب والجناية .

وانك لن تجد انسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومه[1] الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدى ، ويعود بالخصمين المتناجزين[2] الى الصفاء والاخاء ..

فما حارب على عدوا له سابقة مودة به الا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل ، وهما ملحان فى حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسرا[3] لايحتمى بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج الى .. فخرج اليه شـاكا فى السـلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم علي مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل علي والزبير اعتنقا ، وعاد علي يسأله : « ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولانا بدم عثمان »

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبى : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

ولما وقف على على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز علي أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..

والمودة عند فارس كعلي عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان تكون حنان قلب أو ألفة شعور

ويخيل الينا انه لم يرزق قط صداقة الالفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن[4]

---

(١) حومة الشيء : معظمه ، أو أشد موضـع فيه ٠ (٢) المتقاتلين ٠
(٣) الحاسر : من لا يغفر له ولا درع ، أو لا جنة له ٠ (٤) طريقة ٠

الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم اساءة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور

ومثل عليٍّ لا يرزق صـداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكى ، موصول النسب بأعرق الارومات[١].. فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..

وان حسد ، فما الذى يفل[٢] من غرب[٣] حاسـديه ؟.. وما الذى يفيء[٤] بهم الى القصد[٥] فى عدائه والتأليب عليه ؟ ..

انهم يستبعدون يومه فى الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه فى الامارة والسلطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء له فى هوادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه ، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان[٦] ولا يعمد معهم الى الختل[٧] والروغان.. وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التى لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربى : « ان نسى انه أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلها وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصـحابة ، كانت علاقة الزمالة التى ينوب فيها الواجب مناب الالفة ..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين سـواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين .. وتلك أيضا آية الشهيد ..

---

(١) جمع أرومة ، وهي : الاصل . (٢) فله وفلله : ثلمه . (٣) من معاني الغرب : حد الشيء ، والحدة ، والتمادي . (٤) يرجع . (٥) عدم الاسراف . (٦) النفاق . (٧) الخداع .

ثقافته

ألسنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة[1] ليس أصدق منها ان صدقت ، وهى صدق فى كثير من الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل الينا أنها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما تقبل الثمين والغث[2] أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقيــاس ، ثم نعرضه اتفاقا على العلم والقياس .. فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، واذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطــأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذى اختص به عليّ بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه ..

ولم وليس هو بفرد فى الامامة بجملة معانيها ؟ ..

ألم يكن الصديق اماما كعليّ ؟ .. ألم يكن الفاروق اماما كعليّ ؟.. ألم يكن عثمان اماما كعليّ ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه فى الامامة ..

---

(١) أي مقبولة مستساغة · (٢) الغث من اللحم : المهزول ، ومــن الكلام : الرديء الفاسد ·

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها[١] صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو عليّ بن أبى طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أحاديثه المنغومة فى الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

***

وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها عليّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهى اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت فى صدر الاسلام ، فهو منشيء هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه . وندرت فرقة فى الاسلام لم يكن عليّ معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التى جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنّة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب[٢] الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول ..

فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

---

(١) تعاديها · (٢) أي تختلط ·

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته ..

وكانت له فى الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء أنهم يبخسون[1] حقهم فى الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضى الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للامام فى صفة الامامة ، كما اتفق له فى معظم الصفات..

فقلَّ أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب اليه ، وقلَّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه[2] اياه ، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها الا عشرات من الأبيات تصح نسبتها اليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأنا ، الا تصح نسبته اليه ..!

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره واثبات امامته فى عصره ، وبعد عصره

وعندنا انه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

---

(١) ينقصون . (٢) يعطوه .

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا بد فالملك[١] الضليل » [٢]

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة فى شعره ، والنبى عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعليّ فى هجاء المشركين فقال : « ليس بذاك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب[٣] القوم ..

وكل شعره الذى رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا[٤] فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع[٥] فى السماء كأنه عجاجة[٦] دجن[٧] ملبس بقتام[٨]
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جنتى[٩] وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا[١٠] كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا[١٠] أحمد ولداى منها فأيكم له سهم كسهمى

(١) أي امرؤ القيس • (٢) أي عيوب • (٣) بالرماح • (٤) غبار •
(٥) دخان • (٦) الدجن : الباس الغيم السماء • (٧) الغبار • (٨) وقايتي •
(٩) الحرب • (١٠) ولد الولد •

سبقتكم الى الاسلام طرا[1] صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ، أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو يلحق بطبقته[2] بين الكتاب والخطباء ..

***

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع ما نحلوه وأضافوا اليه .. فمثل عليّ فى تقواه وفضله ، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما اليها ، هى من مدخول الكلام عليه .. ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل ..

ولا نجزم مثل هـذا الجزم فى أمر المقامات التى خلت من بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك الى قيهلى حتى لا أنغى نغية الا أودعتها بحماطة حلجلانك »

أى « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك الى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها فى سواد قلبك »

---

(١) جميعا . (٢) طبقته : منزلته ومكانته .

فان الولع باظهـار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها الا بعد استعجام العرب وندرة العارفين

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : «ماتربعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبتسمكت قط » أى ما أكلت السمك يوم السبت « وما تسرولقمت قط » أى ما لبست السراويل قائما .. الى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالامام فى صدر الاسلام

***

الا اننا نسقطها جميعا ، فلا نسـقط بها فضـلا ترجح به موازين الامام فى حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلا — ان شئنا — ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين ..

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ، والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربيـة .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هـذا فرائد الحـكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين[1] العصور ..

ففى كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولاسيما الكلام على الأضـداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصـوفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته الى الامام أو فى جواز نسـبته اليه ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام فى مضمار علم الكلام ، واعترافه

(١) أي اختلاف .

المعترفين له بالأستاذية الرشـيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق فى كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضـعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضـد منافر ، ولـكن خلائق مربوبون وعباد داخرون — أى ضارعون — لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ[١] ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت[٢] عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم[٣] .. »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقـه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسـائل القضاء العويصة[٤] ، قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفى أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصـوصـه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد[٥] فى حلها العقول ، فيقال: ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم

(١) خلق . (٢) أي دخلت . (٣) أبرم الامر : أحكمه . (٤) أي الصعبة الحل . (٥) تتعب .

يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال.

وسئل يوما فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفى هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب ..

واذا قيل فى قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال فى علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهماً[1] فى انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلى شكا اليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملى عليك ، ثم أملاه أصولا منها : ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .. يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقابلة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال

---

(١) أوفر سهما : أكثر حظا .

الخطب على المنابر فى الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى[1] عليها صبغة الانشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون الى أداء ما أرادوه ولايقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته[2] الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذى سمى « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة اليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى اليك حيثما وعيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحدا غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا — بل توجب علينا — أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لابد منه ، ولا نظن قارئا من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

---

(١) أضفى : أسبغ · (٢) سليقته : أي طبيعته ·

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث[١] عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد فى معسكر الامام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود فى بلاد اليمن ، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الاله الذى يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمنى من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة فى حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى اسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الامام فى الكوفة .. وكانت مثابة[٢] الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة فى العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون فى كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء فى سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

(١) أي الدافع (٢) المثابة : الموضع الذي يرجع اليه مرة بعد أخرى ·

ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدى الى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ؟! .. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

***

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلا : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى به فى بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار !»

وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الاسلام على تلك الأيام .. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام ..

على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها [1] انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها

فحصة الامام من علم النحو — مثلا — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

***

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهى فى ابتدائها أصعب جدا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها ..

أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم فى جميع

(١) أي معظمها ٠

هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التى قلنا آنفا انها تسجل له فى ثقافة الأمم عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور

فالكلم الجوامع التى رويت للامام طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبى عليه السلام : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الامام علي فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهى من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود .

***

ويزيد عليها أنها أبدع فى التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه الى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .. أو قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التى تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله يتضح بدلائل « الشخصية » التى تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للغنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » ..

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشىء مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « النـاس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله : « القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة » ..

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشـيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال : « ما تكفوننى أنفسكم فـكيف تكفوننى غيركم ؟.. ان كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف[1] رعاتها ، واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأننى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة[2] »

ورثى محمدا بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدى أصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قـدر سرورهم به ، الا أنهم نقصوا بغيضـا ونقصنا حبيبا » ..

فكل نمط من أنماط كلامه ، شـاهد له بالملـكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبنـاء آدم الذين علمـوا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب

وقد أخطأ « موير » Moyer المؤرخ الانجليزى حين قال : ان عليًا

---

(١) أي ظلم . (٢) جمع وازع ، وهو من يتقـدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح النـاس ولا ينتفع بالنصيحة ، فان « موير » أحجى[1] أن يفرق بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن عليًا كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما انه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح[2] فى علمه أنه قد أعياه[3] علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نسب الى قالة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصـة فى التعريف بعبقرية الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أوكلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطىء أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حينا ، وتنقطع حينا ، كالوحدة التى نراها بغير انقطـاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطىء فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول فى ثقافة الامام علي رضى الله عنه ، ما لم تتممه بالقول فى نصيـبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره[4] الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال فى هـذا الصدد ، أن فن الامام العسكرى هو فن

(١) أي أجدر • (٢) يطعن • (٣) أي استعصى عليه • (٤) المضمار : الموضع تضمر فيه الخيل ، وغاية الفرس في السباق •

البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء[1] الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت فى عضده[2] .. ومن حيله المشهورة فى توهين[3] عزم عدوه ، انه أمر بعقر الجمل فى الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته ..

وهـذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أنباء الامام فى هـذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها فى وقعة صفّين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة فى تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الاشراف[4] وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى[5] الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، واياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ـــ أى محيطة بكم ـــ ولا تذوقوا النوم الا غرارا أو مضمضة » ..

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فان الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا[6] » ومنها قوله للولاة : « انى سيرت جنودا هى مارة بكم ان شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف

(١) أي اشعالها . (٢) أي يضعف في قوته . (٣) أي تضعيف .
(٤) أي الاماكن المرتفعة . (٥) الحصون . (٦) الظعن : السير والرحال .

الشذى[1] ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا الى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »

وهذه وما هو من قبيلها ، مناهذ موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف .

***

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هى ثقـافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام ..

وانها هى ثقافة الفـارس المجاهـد فى سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله ..

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنيـاه ، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

(١) بمعنى الأذى أيضا .

في بيتـه

خلاصة رأى الامام فى المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لابد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجال وتحمد منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت[1] من كل شىء يعرض لها » ..

والامام صائر الى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى ينظر اليها على سنّة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذى ينظر اليها على سنّة العبادة فى جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالقهر ــ أى الحجر ــ أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده .. »

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

---

(١) فزعت .

ومن ذاك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه الى النبى عليه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه اذا شيعها : « اعزبوا[1] عن النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها .

كان جالسا فى أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم بأبصارهم .. فقال رضى الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلا مس[2] أهله ، فانما هى امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام فى المرأة هى خلاصة الحكمة القديمة كلها فى شأن النساء ..

فهن شر لابد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بنى اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام .

لأنهم كانوا جميعا يزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا فى الأزمنة الحديثة التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جناياتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على نصيبهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن

---

(١) أعزبوا : ابتعدوا . (٢) كناية عن الجماع .

تحسبهم جميعا من الأشقياء المعذبين فى بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم فى حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه فى المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الامام عليّ وللمرأة يد فى القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من عليّ وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الامام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج فى زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبى عليه السلام بستة أشهر .. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها ، فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الاثر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد علي بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين .

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عدهم

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم فى « الرياض النضرة » للمحب الطبرى انه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخبـاره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفـه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام ..

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صـلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتنى ، فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هـذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتـك حتى يصـطلحا .. فان كان الفسـاد كان على يدى غـيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : « أى بنى !.. أما قولك لو خرجت من المدينـة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصـار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هـذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ .. ومن تريدنى ؟ .. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب[1] .. ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيمـا لزمنى من الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فتلك

(١) دعاء ينادى به الضبع .

سورة الغضب[1] فى موقف من أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه[2] أن يحيط به أبنـاؤه فى محافل[3] الروع[4] ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشـماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شىء اليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفـلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها الى المسجد ويسره أن يسـألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء الا فى معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه همَّ بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار فى تسمية أخويه الحسين والمحسن . وأتم حق أبنائه فى احسان أسمائهم ، فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان

أما معيشته فى بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها :انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وان أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخـلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

(١) سورة : أي حدة ٠ (٢) من معاني الزهو : المنظر الحسن ، والفخر ، والكبر ٠ (٣) أي مجتمعات ٠ (٤) الفزع ٠

صورة مجملة

من كلمات الامام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غرى غيرى .. غرى غيرى ! »

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..

انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقــد خلق الامام ، وفى كل خليقــة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء

خلق شجاعا بالغا فى الشجاعة ، وزاهدا عظيم الزهد ، ودارسا محبا للحقيقة الدينية يتحرَّاها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة ..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم ..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيــا لأنها طريق عنــده الى غاية من ورائها ..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشــهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صــام النــاس قبله عن الدنيــا ، ثم أقبلوا على الدنيــا العريضة بحذافيرها ..

هــدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت[1] الطبائع الى مألوفها الذى اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا الى الدنيا ..

---

(١) ثابت : رجعت .

واذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها ..

يصد ماذا ؟..

يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصد الطبيعة الانسانية ، وهى منطلقة من عقال التقوى ..

يصد ما لا سبيل الى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له فى اجتنابها ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها ، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل انسان .. فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام[1]..

وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكننا اذا

---

(١) سيف .

قلنا: انه أخفق فى العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق وانما نقول انه أخفق فى العمل ونجسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

***

وحق لا شـك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخفـاقه ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار فى مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك ، وان كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟.. قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لايعطيناها الناس أبدا .. والله لا أسألها رسول الله أبدا » ..

آمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سألوه : « أنبايع الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

***

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة ، وضرب كما علمنا فى المسجد .. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

فهرس

صفحة

المكتبة العصرية للطباعة والنشر
لصاحبها
شريف عبد الرحمن الأنصاري

الناشر الوحيد خارج مصر منذ عام ١٩٢٢ لكتب الكاتب الإسلامي الكبير

عباس محمود العقاد

لبنان { بيروت . ص . ب ، ٨٣٥٥ - تلفون ، ٢٢٧٥٤٥
صيدا . ص . ب ، ٢٢١ - تلفون ، ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢١٦١٢ }